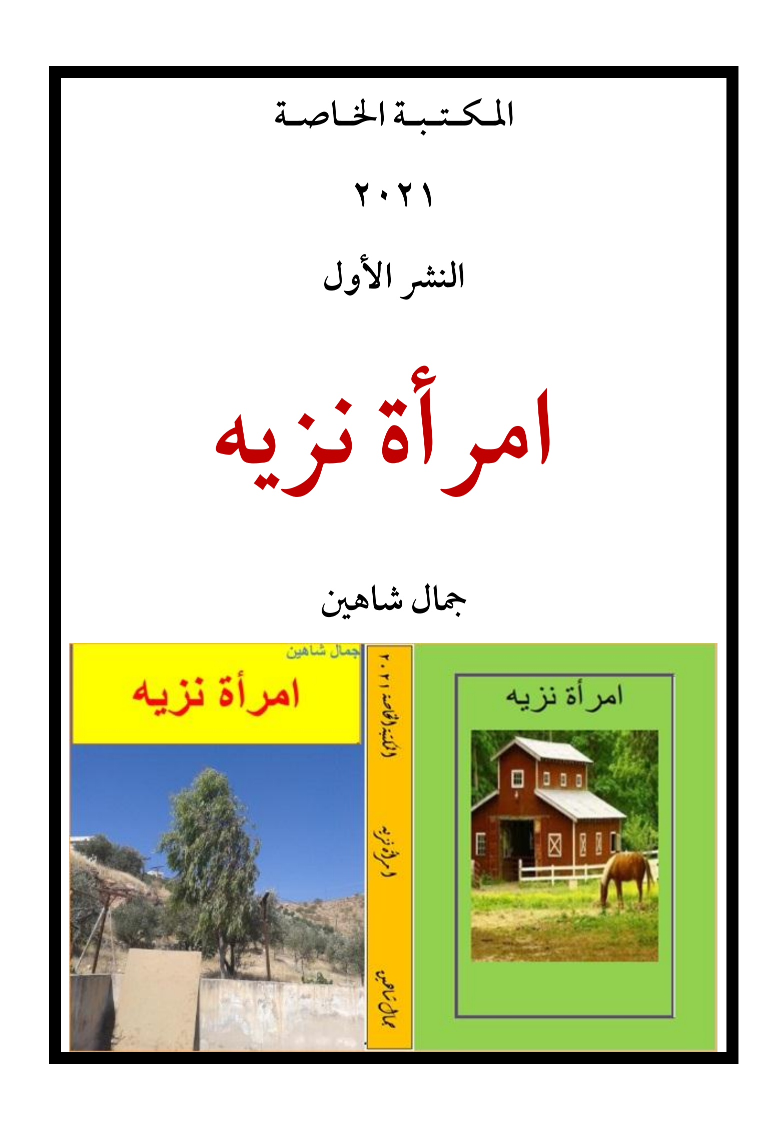
جمال شاهين

امرأة نزيه



بسم الله الرحمن الرحيم



جمال شاهين



لما التحق" نزيه يوسف" في كلية التجارة حسب رغبته كان معه ابن عمه "رافع محمد" كلاهما في نفس الجامعة ، ذهب رافع إلى كلية التربية تخصص الرياضيات ؛ لتحقيق رغبته بأن يكون معلما لهذه المادة في قريته جمالة أو ما حولها من القرى رغبة في التدريس والعمل مع أسرته في الزراعة والحقول ، لم يكن محبا للحياة في المدن الكبرى كابني عمه نزيه وإبراهيم .

كان إبراهيم الابن الذكر الأكبر ليوسف الجمالي ، وقد سبقهم بعام دراسي واحد ، فبينه وبين نزيه من العمر سنة وبضعة شهور ، وهو طالب في كلية الحقوق السنة الثانية ، وكان مستأجرا شقة مع زميل من جمالة ، ولما حضر نزيه ورافع للدراسة الجامعية ترك الشقة عن رغبة واتفاق مسبق بينه وبين إبراهيم ؛ ليفسح المجال لهما ، وانتقل للعيش مع قريب له كما كان مرتبا بينهم فقد سمح له إبراهيم للعيش معه بدون مقابل من باب الإحسان والجيرة . وكان مع نزيه في الجامعة من بلدة جمالة كثير من أبناء الفلاحين والقرية ، فكان معه سوى رافع زميل شاب اسمه" نعيم أشرف " درس الثلاثة الثانوية في مدرسة واحدة ، ودخل نعيم ونزيه كلية التجارة سوية كذلك ، فكانوا رفاق درب ، وكان معهم طلاب آخرون من القرية قد سبقوهم للجامعة ، وممن انهوا الثانوية معهم . كان أهل القرى والريف الفلاحون يحبون إعطاء أبناءهم فرصة للتعليم والدراسة اذا اجتازوا الثانوية العامة ، والناس تحاكي بعضها البعض ، وتنظر وتقلد لبعضها البعض ، والشهادات تحقق لهم المستوى الاجتماعي ، وتعلي من شأنهم أمام بعضم البعض ، ويفخر الأهل بتعليم الأولاد وتدريسهم ، وقد يملك بعضهم مالا أكثر من مائة شهادة وشهادة . العادة أن أهل القرية والريف يعرفون بعضهم بعضا أكثر من أهل المدن ، فالقرية تعداد سكانها أقل كما هو معلوم ؛ فلذلك ترى الناس في القرية يعرفون بعضهم ، حتى أن بعضهم تراه يعرف نساء وبنات الناس ، هذه امرأة فلان ، وتلك بنت حمدان وهذه أخت زيد ، وحتى أنهم يمكنهم أن يعرفوا بعضهم بسبب اللهجة أو كلمات يلفظها سكان وأهالي منطقة ما ، فيعرفون أهل تلك البلدة ، فكذلك شبان وبنات جمالة تراهم يحيون

بعضهم عند كل لقاء . أما من ولدوا في المدينة فيصعب عليهم معرفة أبناء قريتهم من لهجتهم وطريقة لفظهم الكلام فأهل المدينة لا يعرفون بعضهم إلا اذا جرى تعارف واحتكاك بينهم .
وممن كان في فصل وسنة نزيه من أهل جماله زميله في المدرسة الثانوية نعيم اشرف كما ذكرنا ، وممن رافقهم وصحبهم من طلبة المحاسبة في كلية التجارة الطالب سليم عبد الله ، وهو من سكان مدينة سلام الدين ، هؤلاء الأربعة كانوا رفاقا وقريبين من بعضهم بعضا ؛ كأنهم أشقاء ، ثلاثة في كلية التجارة ، ورافع محمد طالب كلية التربية ، وهو رفيقهم بحكم أنه ابن عم نزيه يوسف وصديق لنعيم اشرف ابن بلدة جمالة . ونزيه ورافع يعيشان مع إبراهيم يوسف طالب الحقوق ، وهو يسبقهم بعام واحد فحسب ، وكان بيته المستأجر من عام قريبا بضعة كيلو مترات عن الجامعة ، وذكرنا أنه سمح لزميل أن يحيا معه العام المنقرض ، ونعيم سكن مع قريب له في قلب المدينة ، وأما سليم فيعيش مع أهله وبيت والده وأسرته .
وكان الأربعة يلتقون في غير الجامعة في مقهى الجامعة الذي يقع في شارع الجامعة ؛ حيث يلتقي الطلبة من جميع الكليات للحديث والدردشة وشرب الشاي والقهوة والمثلجات بأنواعها ، والمقهى هذا يستقبل الجنسين لم يكن خاصا بجنس كما في بعض المقاهي في المدن ، وهذا كان في الثلث الأخير عام ١٩٦٠ . يجلسون للحديث عن المحاضرات والمواد الدراسية ، ويعلقون ويسخرون على المحاضرين والمدرسين ، وتصرفاتهم وحركاتهم والطرائف التي تحدث بين المحاضرين والطلاب ، وما يحدث من نشاط بين الطلاب والكتل الحزبية والإدارة والأمن الجامعي والأمن السري، وما ينشر بين الطلاب من نشرات سرية وعلنية وبيانات سياسية حول قضايا الداخل والخارج .
كان نزيه مجادلا ومناكفا من ثانوية جمالة ، ومحبا للنقاش والجدل ، ولا يتقبل المعلومات بسهولة ودون معارضة وعقلانية قبل أن يستسلم للمعلومة المطروحة ، وهو من عشاق القراءة والكتب والمجلات والجرائد وسماع الأخبار ، ومناقشتها ، ويتحدث في السياسة والعلوم والفلك والنظريات والبديهيات وتحركات الزعماء والأعلام ، وكان الأحداث المهمة

تلك الفترة من الزمن الثورات العربية في شمال أفريقيا والوعود الفرنسية لهم بالاستقلال ، وشغلتهم وحدة مصر وسوريا باسم الجمهورية العربية المتحدة ، وسعي إمام اليمن بالانضمام إليها ، وأن تحرير فلسطين قد اقترب ، وكان الاستعمار الأوربي يرحل عن البلدان العربية رويدا رويدا بعد أن زرع الحركة الصهيونية في قلب العالم العربي في فلسطين العربية .

فقد ظهرت قبل أعوام دولة اسمها إسرائيل على أرض اسمها فلسطين الساحلية ، واستولت مصر الملكية على غزة أو قطاع صغير من غزة التاريخية، وكانت الأحداث دائمة ومستمرة في هذا القطاع الجزء الفلسطيني على ساحل البحر المتوسط . وحديث فلسطين عنوان الصحف والمقالات والمجلات العربية والعالمية والإذاعات وهو الخبر المتصدر كتابة وصوتا ، والشباب والأحزاب ديدنهم نقل الأخبار والتعليق والتعقيب عليها ، كل حسب ثقافته وميوله الفكرية ونزيه ورفاقه شأنهم شأن الشباب في ذلك الحين ، وكان الطالب سليم من شباب فلسطين وأحد المهاجرين من حرب ما يسمى النكبة ـ فقد سمي عام الخروج الفلسطيني من قراهم والساحل الغربي نكبة فلسطين ـ إلى مدينة "سلام الدين " احدى مدن العرب في القرن العشرين ، وهو شاب من أسرة وطنية ، له أقارب وأعمام قتلوا سواء في جيش الإنقاذ العربي أو الجهاد المقدس جيش عبد القادر الحسيني المناضل الشهير الذي قتل على أرض القسطل ، بلدة مقدسية . عام النكبة والهجرة الفلسطينية عام ١٩٤٨، فقد طرد ما يقارب المليون إنسان من قراهم ومدنهم التي تزيد عن ٥٠٠ قرية ومدينة ، هي كارثة بحق رغم استخدام العالم لكلمات وألفاظ لتهون الأمر على المشردين لليوم ؛ حيث تسطر قصة نزيه يوسف .سقطت البلاد والعباد على أيدي شرذمة من اليهود كما سماهم القرآن على لسان المجرم العالمي فرعون ، فهم يزعمون أنهم أحفاد وذرية يعقوب وهو إسرائيل . سبعة جيوش عربية سوى مجاهدي فلسطين سعوا إلى صد ومنع قيام دولة صهيون حتى أن رافعا قال لسليم بتردد وحيرة : أيعقل أن تغلب إسرائيل الناشئة سبعة جيوش عربية؟!

ضحك سليم وقال : صحيح وهذا هو الواقع .. هزمت الجيوش السبعة يا أستاذ رافع!

ـ كيف تم ذلك؟!

ابتسم سليم لرافع قائلا: أنا كنت طفلا ابن عشر سنوات يا صديقي وأخي ! أدرك الرحيل من القرية مشيا على الأرجل ليلا نهارا إلى تجمعات شرقا.. حيث ما يعرف اليوم بالضفة .. ومنها إلى مدينة سلام مدينتنا هذه للحياة والعمل .. هذا ما حصل .. قام الجيش الصهيوني الهاجاناه بطردنا من قرانا ومدننا .. رحلنا عن الرملة .. مدينة مهمة وسط فلسطين غرب بيت المقدس .. مدينة شهيرة في التاريخ .. أول من أنشأها الأمويون خاصة الخليفة السابع سليمان بن عبد الملك .. وكما تعلم واشتهر تفرق أهل الساحل الغربي لفلسطين شرقا وشمالا وجنوبا وبعضهم ركب البحر جهة مصر خاصة من كانت جذورهم من مصر .. فلسطين تاريخ حافل وعجيب من الغزاة .

قال نزيه مؤكدا : فعلا تلك الديار كل أجناس العالم أو أغلبها جاءت إليها .. الحملات الصليبية جلبت بشرا من جل أنحاء أوروبا إليها.. تابع يا سليم.

قال : شكرا يا نزيه ! حتى من يسمون أنفسهم باليهود أجناس شتى فيهم الفرنسي الأمريكي الألماني الروسي البولندي .. يهود العرب المغرب مصر العراق .. الحديث ذو شجون كما يقال .. حقيقة حياتنا نحن الفلسطينيين عجيبة.. تشرد .. .. خيم .. مخيمات.. بؤس

قال نزيه مضيفا : طرد اليهود الملاعين يا رافع مليون فلسطيني سنة ٤٨ .. وانكسرت الجيوش السبعة .. وأصبح الفلسطينيون لاجئين هنا وفي الدول المحيطة بأرض فلسطين المقدسة .. حتى أننا سمعنا أن هذه الجيوش ذهبت للقتال بدون أسلحة وأدوات فعلية للقتال .. ظنوا أنهم ذاهبون لمصارعة الثيران أو شمة هوا أو فزعة عربية .. ولا ادري صحة ذلك !

قال رافع : معقول هذا!

قال سليم : هذا ما كان ! يبدو أن نزيها قرأ جيدا مادة القضية الفلسطينية .. الواقع أن هذه الدول كلها كانت تحت الحماية البريطانية والانتداب الإنكليزي وغيره .. وأسباب الهزيمة والنكبة الكارثة كثيرة .. سوريا ولبنان كما تعلمنا كانتا تحت الرعاية الفرنسية وإن كان

ظاهرهما الاستقلال .. الأردن والعراق كان الضباط الإنكليز هم الذين يسيطرون على قيادة الجيوش .. كانت بالمجمل دولا ضعيفة .. يعتمدون على الحماس والشجاعة الفردية والفزعة .. والسعودية دولة ناشئة وبرعاية الإنكليز والأمريكان بعد الحرب الكونية التي انتهت قبل نكبة فلسطين بثلاث سنوات وقوات من السودان والمغرب ..واليمن الشمالي في حالة تخلف وجهل فظيع أيام الإمامة .. كان أستاذ التاريخ مدرسنا في الثانوية يسخر بشدة من هذه الجيوش السبعة ..كان قوامها كما يقول ثلث جيش إسرائيل .. وإسرائيل تسليح من أحدث وأفضل الأسلحة والذخيرة .. وحتى الروح القتالية أفضل مما في جيوش الجامعة العربية .. كانت مجال سخرية للعالم .. وأستاذنا كان يقول : نشأت هذه الدولة كالخيال ، لم يكن الكثير من الشعب الفلسطيني يصدق أن هذه الشرذمة سيقيمون دولة وكيانا ؛ لكن هذا ما حصل طردنا وشتتنا وصارت لهم دولة يا رافع .. وقد دق اسفين كبير في أمة العرب .. والحديث أكثر من ذي شجون اذا كان ذا شجون .

قال رافع حزينا : معك حق ! ففلسطين مأساة وكارثة كبرى ليست نكبة فحسب .. فآلاف من الناس يعيشون في عشرات المخيمات بعد العز والسعادة والفلاحة .. نحن في الريف لم نشعر بمأساتكم .. تأثرنا بما سمعنا من مدرسينا الأفاضل .. ولكن لم يكن هذا التأثير كما نرى منك ..كانت مادة تدرس .. لا يعرف الحق والألم إلا من كابده .. المخيمات مؤلمة ويا لها من مخيمات! فربما أنت تعرف عنها أكثر بكثير منا .. عشت في المخيم يا سليم !

رد بحزن فقال : نعم ، عاشت فيها الأسرة في أول الهجرة بضع سنين.. ثم اشترى جدي بيتا واسعا له ولأولاده الأربعة .. منهم أبي .. كان الجد من الملاك في الرملة ، وله أصدقاء في مدينة سلام الدين ، وعمي تزوج منها بعد الخروج الكبير ، هو الوحيد لم يكن متزوجا في البلدة ذات التاريخ العريق منذ شيدها الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك رحمه الله .

الشارع الممتد من وسط سلام الدين إلى بنايات وعمارات الجامعة شارع طويل عدة كيلو مترات ، وهو مليءٌ بالمطاعم والمقاهي والمكتبات ، وقرب الجامعة بيوت وشقق مفروشة لسكن الطلاب القادمين من الريف والمدن البعيدة أو المبتعثين من الدول الأخرى. وقرب الجامعة مقاهي كثيرة ، أحدها يحمل اسم مقهى الجامعة ، كان طلاب كلية التجارة وغيرها يترددون عليه لشرب الشاي والقهوة والمرطبات الشائعة ، ونهتم به دون غيره ؛ لأن نزيه يوسف ورفاقه يعتبرونه مقاههم المفضل ، سواء في العطل أو عند الخروج من أسوار الكليات وهو حمل اسم الجامعة فنال شهرة على غيره وربما هو أقدم مقاهي الشارع الذي يحمل اسم شارع الجامعة . ويتردد على هذا المقهى طلاب وطالبات القسم الداخلي ، وسكان الشقق المفروشة والمؤجرة للطلاب ، فهو مكان مناسب للقاءات والمناقشات الطلابية ، وسهل اللقاء به لشهرته وقدمه ، وهو مكان متسع ، وبجواره عدد من المطاعم التي توفر الطعام والوجبات الخفيفة للزبائن ، فتسطيع شراء ساندويتش وتتناولها في المقهى مع كوب شاي أو عصير.

وفيه تجد الأخبار ونقلها ، والسياسة ودواوينها ، والصحف ومقالاتها ، وشباب الأحزاب والتيارات الفكرية والثقافية والعلمانية والدينية ، طاولات للجدال وإظهار الأفكار والأحلام ، وهنا يتبادل الطلاب المعلومات والحكايات والتعارف ، وما يحدث في الكليات من طرائف وقصص للطلاب والمحاضرين والإدارات فتعلم كل ما يدور داخل أسوار وقاعات الكليات. كان الحديث يدور تلك الأيام وذاك العام عن الصراع من أجل الاستقلال في الشمال الإفريقي ، والثورة الكوبية ، والصراع الكبير بين الشيوعية والاشتراكية والرأسمالية والشرق والغرب ، فالحديث في السياسة والانقلابات العالمية والعربية مستمر ودائم ، والصراع بين العلمانيين والإسلاميين ، وبين القوميين والوطنيين وحتى بين التيارات والأحزاب والطوائف الإسلامية اليسار واليمين . للحق كما سبق وذكرنا أن في شارع الجامعة المار ذكره مقاهي أخرى حتى الملاهي والنوادي متوفرة على جوانبه ؛ وإنما ركزنا على مقهى الجامعة ؛ لأنه المقهى

الذي يرتاده نزيه يوسف ورفاقه رافع ونعيم أشرف وسليم وعدد من أبناء جمالة الذين يتعلمون في تلك الجامعة ، ومن خلاله تعرفوا بشكل جيد على عماد مصطفى ونعيم احمد من كليات أخرى ، وهما من شباب حزب التحرير الإسلامي ، حزب إسلامي نشأ من قبل سنوات قليلة في الضفة الغربية ، وخلال القهوة والشاي والمثلجات والمشروبات يجري طرح القضايا الدينية والسياسية والعلمية والصراعات ، وأهمها الصراع العربي الصهيوني ، وكيف نجحت إسرائيل في قيام الكيان الصهيوني بين أمة العرب ، وهم لا يمتون للجنس العربي ، وهم بين الأغلبية ذات اللسان العربي ، وبين الصراع الغربي بزعامة أمريكا والاتحاد الروسي الشرقي ، ومشاكل الأحزاب العلمانية في بلاد العرب ، وفشلها في الحكم والاقتصاد .

وكان نزيه يرى أن حزب التحرير منشق عن جمعية الإخوان المسلمون ، وأنه يحمل أفكار فرقة المعتزلة في الصفات الإلهية ، واعتقاد عذاب القبر الذي لا يجزمون به ؛ لأن الاعتقاد يحتاج إلى جزم في الكليات العقدية ، واذا أنكر شباب الحزب ذلك ، التحرير والمعتزلة العقل هو عمود فقري ويقدمونه على فهم النصوص، وكان نزيه يحب ذلك ويقف معهم في أهمية العقل ومقارعتهم للشيوعيين ، ويمدح المعتزلة في التحسين العقلي والتقبيح للأشياء ، فالحسن ما يراه العقل . كان نزيه يحب المطالعة كثيرا ، وكان معظما للعقل مثل شباب حزب التحرير ، ويحب الجدال والاقتناع اقتناعا حقيقا بما يطرح للنقاش ، ولا يقبل الحقائق بيسر وسهولة ، ووجد نفسه محبا لشباب حزب التحرير المنشق عن الإخوان أو المتأثر بهم في مطلع الخمسينات على يد القاضي تقي الدين النبهاني ، ولم ينتم له ، فأهل القرى لا يعرفون الأحزاب ولا وقت لديهم للسياسة والأحزاب والاجتماعات ؛ ربما يسمعون بها ممن يرتادون ويعملون في المدن لاعتناقهم لها أو جلوسهم مع الحزبيين . قلنا عماد ونعيم من رواد المقهى كانوا من حزب التحرير الذي يسعى لعودة الخلافة ولو بانقلاب عسكري يدعمه الحزب ، فكل كلامهم حول السياسة وأمريكا وبريطانيا .

ففي بعض الأحيان يدخل الشباب اليساري الشيوعي للمقهى للقاء شخص أو تناول قهوة

وغيرها ، فيلتقون بشباب التحرير والإخوان ويحصل الجدل حول الماركسية واللينينية ، ويشترك نزيه ورفاقه معهم في الجدل والنقاش ، وعن فضائل الفكر اليساري والفكر الإسلامي، كل حسب وجهته وثقافته ، وماذا قدم المسلمون للعالم؟ وما قدمت المنظومة السوفيتية للعالم ومقاومتها للعلمانية والرأسمالية والليبرالية ، وكيف تحارب الشيوعية الاستعمار والاستبداد ؟ وما تكرسه الصوفية والدين لبقاء الطغيان والخضوع وإن الآخرة أهم وهم يشككون في العقاب والاقتصاص الأخروي .

فكان نزيه متشجعا ومبتهجا في مثل هكذا جدل ، ويحشر الفكر المعتزلي في الحوار والجدل والعقل وتمجيده وتفنيده لضلال الشيوعيين حتى لقبوه بالجعد بن درهم أحد رجال الاعتزال القديم ، واطلق عليه هذا الاسم تهكما ،فيقال قد جاء جعد نطق جعد ، وانتشر هذا الاسم في المقهى وساحات وقاعات الجامعة ، وعرفوه بهذه اللقب حتى من لا يعرف المقصود من هذا الاسم ؛ لأنه يدرس في كلية تجارية لا تعرف مثل هذه الأسماء بالمجمل، فهي كلية محاسبة وتدقيق وموازنة وشركات وأموال. انتهى الفصل الثاني ، وقفل الطلاب لقراهم وبلداتهم في إجازة صيفية ممتدة في فصل الصيف حتى الخريف ، وكان من المعتاد سخرية أبناء المدن من أبناء الفلاحين والقرى ويصفونهم بالرعاة والمزارعين والجهل والحمق والغباء والسذج ويعتبرون أنفسهم أذكى وأحضر .

كان رافع محمد قريب نزيه يقول له بعد تناولهم طعامهم في شقة إبراهيم طالب الحقوق ،وقد تركهم إبراهيم إلى حجرة النوم ليراجع ويذاكر ويقرأ : أنا لم أفهم كلامك عن حزب التحرير والصوفية !

وقد دار بين إبراهيم ونزيه أثناء العشاء ذكر عن الفريقين أحدهم يتابع السياسة والآخر يتابع حلقات الذكر بالقفز . ابتسم نزيه لابن عمه وهو يترك كوب الشاي فارغا : هذان الشابان عماد ونعيم رفيقه يزعمون أنهم مناصرون متعاطفون أعضاء لا تعرف الحق أنهم في الحزب الإسلامي .

قال رافع محمد : ما الفرق بينهم وبين غيرهم ؟ كل كلامهم في السياسة وأمريكا وبريطانيا والأذناب يقصدون أذناب الاستعمار .. الخلافة الحل لتمزق الأمة ويظنون أنهم بتنصيب الخليفة تحل المشاكل وتحرر فلسطين .

ضحك نزيه وقال : هذه الخلافة عقدتهم وديدنهم ؛ بل ظنوا أن الخلافة ستكون بعد ثلاث عشرة سنة من تأسيس الحزب ، واقتربت السنوات على الزوال ، هم قاسوها على مدة الدعوة الإسلامية في مكة .. هذه أحزاب برزت بعد سقوط الخلافة العثمانية في مطلع القرن كما قرأنا .. حزب التحرير قبل سنوات ظهر بعد نكبة صديقنا سليم أو نكبة العرب .. قبل سنوات ظهرت أحزاب إسلامية معاصرة لإحياء العودة إلى الدولة الواحدة إلى خلافة إسلامية ، وهو نظام الحكم الإسلامي بعد موت النبي ﷺ .. الاستعمار الأوروبي استطاع إنهاء نظام الخلافة في تركيا اليوم .. والخلافة كانت مؤسسة رمزية دينية قائمة في إسطنبول التي كانت تسمى الاستانة .. انتهت على يد شخص عسكري اسمه مصطفى كمال أعلن الجمهورية التركية العلمانية التي تعني فصل الدين عن الحكم والدولة .. وكان ذلك سنة٢٣ أو ٢٤ لا أذكر بالضبط .. أنشأ الرجل جمهورية كسائر الدول والجمهوريات الإسلامية .. النظام الجمهوري ، كما في وقتنا .. جمهورية في سوريا في العراق في لبنان في ايران .

وتابع فقال : بعضهم جهر بالعلمانية وأعلنها ، وبعضهم أسرها .. وكما درسنا وعلمت .. قسم الاستعمار الغربي البلاد إلى دويلات سوريا لبنان العراق الأردن وسعوا لتقسيم سوريا أقساما أخرى .. وفلسطين كما في قرار التقسيم الدولي عام ٤٧ .. قل غربها أعطوها لليهود لإقامة دولة صهيونية وقطعة من جنوبها لمصر وشرقها للفلسطينيين ثم ضموه لشرق الأردن .. وركزوا لنجاح مكرهم على الأعراق والجنس عرب ترك كرد أرمن وغير ذلك من الملل والأديان ، كما ترى اليوم .. المنتصر يفعل ما يريد .. وقبل العرب بهذا التقسيم والحدود .. ومصر كبرى الدول العربية والأكثر بشرا كانت محتلة قبل سقوط الدولة العثمانية .. وشمال أفريقيا خاضع لفرنسا إلا ليبيا حكمها الطليان .. وها نحن نسمع أن الجزائر وتونس على

وشك الاستقلال .. المهم من نتائج الحرب الكبرى تحول تركيا إلى جمهورية وقومية تركية.

قال: جيد الكلام ! ولماذا الخلافة ؟!

قال نزيه كأنه خبير تاريخي وفيلسوف : في رأيي أنا أن الخلافة الحقيقية انتهت بدخول المغول وأحفاد جنكيز خان بغداد بزعامة هولاكو عام ٦٥٦ هجري .. انتهت الخلافة الإسلامية العربية.. فلما ظهر المماليك كقوة في مصر مماليك الملك الصالح الأيوبي ابن أخ القائد الشهير صلاح الدين احتاجوا لدعم رمزي لتثبيت حكمهم فجلبوا عباسيا وتوجوه خليفة .. فسكت الناس فكان الخليفة كما نرى ملوك أوروبا ملوكا دون حكم .. شغل مراسم .. الذي يحكم ويرسم رئيس الوزراء وحكومته وحزبه المنتخب من الشعب .. وظل ظل الخلافة حتى فتح الترك القسطنطينية آخر معاقل الروم .. فغزا الغازي سليم الثاني الشام والعراق ومصر وضمها للحكم العثماني نسبة إلى عثمان بن طغرل ..فأخذ وساق الخليفة إلى الاستانة .. ثم تنازل الخليفة لسليم ؛ فأصبح خليفة المسلمين يا رافع يا ابن عمي .. وذلك قبل أربعة قرون .. وحكموا أجزاء من البلقان .. وبلاد العرب بلاد شاسعة .. حكمونا للحق باسم الإسلام .. وخضعت لهم أمم وأجناس شتى.. حقيقة انتهاء الرمز أصاب المسلمين في حسرة ذلك الوقت .. وحزب التحرير يسعى دون الأحزاب الإسلامية الأخرى لعودة الخليفة أولا .. أنت تعلم أن عرب الشام والعراق والحجاز انفكوا عنها تلك الخلافة خلال الحرب الكونية الأولى .. وقامت جامعة عربية لتوحيدهم .. وما زالوا يحلمون بذلك من سنة ١٩٤٥ أو من قبل .

قال رافع : لماذا جلبوا اليهود المناحيس الذين لا يتكلمون العربية مثلنا إلى بلاد العرب ؟!

رد نزيه ببطء : صنعوا هذا الكيان لأهداف خاصة واستعمارية ؛ لأنهم يدركون أنهم راحلون كما رحلوا عن الهند بعد قرون من ابتلاع خيراتهم وثرواتهم ، وقد قامت في الهند ثورات وحركات أدت لتحرر الهند واستقلالها عن التاج البريطاني ومن غاياتهم بقاء العرب منقسمون ومتفرقون .. فجلبوهم ؛ ليكونوا يدهم الطولى في بلادنا .. ظهرت حركات دينية وعلمانية تبغض المستعمر في وعي الشعب .. وهذا ما حصل .. وقيل خرجت القوات

العسكرية وأبقت التوابع بأسماء مختلفة .. ظهرت جمعية الإخوان المسلمون على يد المدرس حسن البنا عام ١٩٢٨ وبعض رفاقه كجمعية دينية لإعادة الوعي الديني بين المسلمين والعودة للروح الإسلامية وتمهيدا لعودة الإسلام كمنهج حياة بين العباد وفي البلاد ، ثم جروا وانخرطوا في السياسة والعمل العسكري لإخراج الإنجليز من بلاد مصر .. وبعد الحرب الثانية تولدت حركات مشابهة في الفكر والعمل في بلاد الشام والعراق وبعض البلدان الإسلامية المستقلة .. وفلسطين قضية النظام العربي والفشل العربي ، حتى الكفاح المسلح الفلسطيني ضعيف ومشتت كما نقرأ ونسمع في الترانزستورات .. الراديو أقصد .. وأعتقد أن سليما ؛ ربما لديه معرفة عن قضيته أكثر منا .. والواقع كان الله في عونهم .. جزء ضم لشرق الأردن وجزء صغير ضم لمصر .. والقسم الأكبر أصبح دولة قومية لليهود الملاعين أخبث شعوب الأمم اليوم .. وحزب صديقنا عماد ونعيم كان مؤسسه الفلسطيني القاضي تقي الدين النبهاني من أسرة عريقة دينية دارسا الشريعة في أزهر مصر وتعرف على الإخوان ، ثم انشق عنهم حسب ما قرأت في بعض المجلات أو كما قيل ، وأسس حزب التحرير وشارك الحزب في انتخابات عام ١٩٥٥ في الأردن ؛ لأن القدس حيث عمل النبهاني قاضيا شرعيا في محاكم الأردن وفاز ممثلهم بمقعد عن مدينة قلقيلية .. وشعارهم طلب النصرة لإنشاء خلافة عربية تعم العالم ؛ لعلهم ينجحون يا ابن عمي والله أعلم .. حتى أنهم يؤيدون قيام انقلاب عسكري لهذه الغاية .. فالانقلابات تملأ الساحة العربية في مصر قبل سنوات وسوريا قبلها وبعدها .. وقبل ثلاث سنوات قاسم في العراق .. وفي وايران وأفريقيا السمراء .. انقلابات شغالة .

فلما صمت نزيه قال رافع : ما الفرق بين هذه المسميات ما دام كلها تعمل للدين؟!

تنهد نزيه وقال مفكرا في الإجابة : الفرق يا ابن عمي الإخوان يقال إصلاح من الفرد وتربية ، ثم الصعود .. التحرير إصلاح من الأعلى وفرض القوانين بقوة السلطة والحكم .. والناس تلتزم بها .. والصوفية والجماعات القادمة من الشرق لا يهتمون بالسياسة .. ويتعايشون مع كل

النظم حتى ولو كانت كافرة في نظر الإسلاميين .. والصوفية طرق كثيرة يتوارثها الأبناء عن الآباء .. فموسى الطالب المعمم طرقي مختلف عن التحريرين .. والإخوان فيهم صوفيون وأشاعرة وسلفيون اتباع السعودية والخليج العربي.. اهتم الإخوان بإصلاح الفرد والتحرير بإصلاح الحكم ..والجماعة يقولون لو أمر الخليفة بإغلاق الخمارات نفذ وأطاع الناس فورا .. اغلق البنك يغلق البنك.. أما جماعة الشيخ حسن تربية الفرد على الخلق الحسن التمسك بالدين رويدا رويدا نصل للحكم ، ويعملون مع الأحزاب العلمانية كالوفد في مصر والبعث في سوريا ، ويعملون بالسياسة والنيابة وأقول وفق الله الجميع .. لقد تعبت يا رافع !

قال : عافاك الله .. أحسنت !.. أختم .. أنت مع من؟!

قال نزيه : أنا مع المحاسبة مع أفكار المعتزلة!!



انتهى العام الجامعي الأول لنزيه يوسف ورفاقه فرجع لجمالة لقضاء فصل الصيف في ربوع وشوارع القرية ومزارعها ، عاد لمسقط الرأس للراحة ، وشم هواء ونسيم الصيف ، هم طبعا لم ينقطعوا نهائيا عن القرية خلال العام الأول .

وبعد حين يسير من العطلة دعا نزيه ورافع ونعيم زميلهم في الكلية سليما ودعوا أيضا رفاق المقهى عمادا ونعيما ؛ لتناول الطعام في بلدتهم وقريتهم المدينة الصغيرة ، فالقرى تكبر كما المدن وكانوا في الترحيب بهم في محطة الحافلات في جمالة ، وتعانقوا عناق المشتاقين ؛ كأن لهم سنوات لم يروا بعضا. في مزرعة يوسف والد نزيه وعم رافع كانت حفلة الشواء والغذاء ، وسر الضيوف من الضيافة والفواكه الطازجة والطيبة من فواكه المزرعة .

فقال عماد : حتى نبقى على تواصل أيها الأصدقاء خلال شهور الصيف.. لماذا لم تشتركوا في نادي الجامعة.. نلتقي كل أسبوع مرة على الأقل .. فالحديث معكم ومع أفكاركم ممتع ومثري .. فنادي الجامعة لا يتوقف نشاطه صيفا .. فهو يعمل على مدار العام .. فنلتقي ونرى ونسمع بعضنا بعضا.

فقال رافع : حدثني عنه زميلي طلال ورافقته إليه أكثر من مرة .. الحق يا نزيه أن فيه مكتبة كبيرة .. وتقرأ الصحف المحلية والدولية مجانا .. وللعلم المشروبات والمطعومات بمقابل والتدريب الرياضي كذلك .. الاشتراك فقط للدخول فحسب.

قال عماد : صحيح الخدمة بمقابل .. الماء والوضوء دون مقابل .. والاشتراك دينار واحد في الأسبوع الواحد .. يمكنك الدفع أسبوعيا أو شهريا .. فالمبلغ بسيط قد يرى الطالب المبلغ كبيرا خاصة على البسطاء ؛ ولكن والدك صاحب هذه المزرعة لن يعجز عن دفعها.. بارك الله لكم فيها نقول ما شاء لا قوة إلا بالله!

قال نزيه : شكرا لكم

ودعا وبارك الجميع وقال نزيه : الحمد لله.. الأمور المادية طيبة .. والوالد سخي حقيقة ..

واسأل جارنا نعيما .. فهو خير من يعرف الوالد .. فالوالد وأعمامي يقدمون ما تيسر لجمعيات القرية وحتى قرى مجاورة .. ونخرج الصدقة والزكاة .. فوالدي متدين ومتعلم ويحب العلم وطلبة العلم .

فقال نعيم أشرف : والسيد الكريم يوسف أبو إبراهيم معروف بالجود ومساعدة الأيتام في البلدة والبلدات الأضعف منا .. ويشارك في مناسبات ونشاطات القرية والبلدية .

فقال نزيه ممتنا : شكرا نعيم ! ولا تنسوا أننا نسكن بيتا في سلام .. فالوالد يدفع أجرته ومصروفاته .. ورغم الصيف فما زال مستأجرا ، ويتردد عليه إبراهيم ويقضي كثيرا من الوقت فيه .. وفكرة الاشتراك في النادي راودتني من العام الدراسي الماضي .. وكان المقهى يغني عنها .. وأنا على علاقة طيبة مع أبناء وبنات أخوالي وخالاتي في سلام فكنت أقضي معهم كل أوقات الفراغ ، وهم يرحبون بذلك .. ولم ألمس منهم الضيق .. ورافع يعرف ذلك .. فربما هذا سبب دفعني للتقاعس عن قضاء وقت في النادي وغيره.. ولكنكم شجعتموني الآن وصحبتكم مثيرة وممتعة .

تبسم رافع وعقب قائلا وممازحا : خاصة أن ابنة خاله باكر الآنسة مارينا تحب صحبته كثيرا .. وترافقه إلى المسرح ودور العرض .. وقبل ذلك إلى مطاعم وفنادق علية القوم .. الله أعلم أن الفتى راغب بالزواج منها كما يهمس إبراهيم .

ضحك الشباب ، وقال عماد: الكل يحب الزواج يا رافع ! البنت بنت خال .. بنت مال وجاه .

قال نزيه : نحن في الريف ليس من السهل إقامة علاقة عاطفية بين شاب وشابة .. ذلك يسبب مشاكل وحساسيات بين العائلات .. فقد يحدث الحب وينتهي بالزواج سريعا إلا اذا تدخل أبناء العم أو الخال ويتزوجون البنت سريعا .. تحدث القصص بحدود ضيقة.. أما في المدينة والجامعة كما سمعنا ورأينا فالأمر مقبول ، ولا وجود للأهل والعقارب قصدي الأقارب .

قال رافع : ألا تحبان بعضكم ؟

ـ الصراحة أنا أحب ذلك ؛ ولكن ليس بيننا قصة حب .. فعاداتهم يا عماد غير عاداتنا .. فلا

أرى والدي يا رافع يقبل .

قال سليم مستفهما : الالتزام لا يوجد عندها!

ـ نعم ، هذا هو الإشكال .. هي مجرد صداقة وقرابة ..والحب وقصصه أستحي أن أفعله معها.. ثم مستواها الاجتماعي والمالي أكثر من أسرتنا .

قال رافع : هذا صحيح .. فعمها مليونير ، وكذلك والدها .. وهم من رجالات السلطة والحكم .

عاد الكلام لنزيه : وأنتم تعلمون .. كيف أتعامل مع فتيات الكلية والجامعة ؟ أنا متدين مثلك يا عماد ويا نعيم .. لكني وكثير من أهالي جمالة معجبون بأخوالي وصعودهم الكبير في الإدارة والمال .. شاكر نوار الجمالي وباكر نوار الجمالي من نجوم مدينة سلام . ولابد أنكم سمعتم بهذه الأسماء ما دمتم من سكان المدينة وتحبون قراءة الصحف .

هز عماد رأسه وقال : أنا أسمع بهما .. ولي قريب يعمل مع خالك شاكر .

وقال نعيم مؤكدا : نعم نعم ، فهم معروفون خاصة خالك شاكر فهو أحد رجالات المال والأعمال والدولة .

قال نزيه : أنا معجب بأخوالي وأعيش معهم خاصة العام الفائت ؛كأنني ابن لهم وابنة خالي التي أشار إليها رافع أنهت السنة الثانوية ، وستكون معي في كلية التجارة حسب ما قال شقيق أمي .. أما الزواج أيها الأصدقاء فأمره ليس سهلا رغم أن أمي أختهم.. فنحن فلاحون وأولاد قرى بالنسبة إليهم.

قال نعيم: الناس تتغير

قال سليم : كنا أبناء مخيمات ، ثم تعلمنا وتغيرنا إلى حد ما .

قال رافع : صحيح ما تفوه به ابن عمي .. فهم أخواله لزم كما يقال.. أبوه عمي يوسف متدين جدا .. وأخواله انفتاح كامل .. الإسلام في الهوية فقط .. رافقت نزيها مرة إلى مناسبة لهم فلم أعجب بتقليدهم للحضارة الغربية.

قال عماد مضيفا : قل الموضة الغربية !

قال رافع : اللبس والزينة والخمر عادة حتى أنهم سكبوا لنا خمرا حتى وقع في نفسي أن نزيها تعلمها منهم فصارحته بخاطري فأقسم أنه لم يتعاطها في حياته ، وهم لا يشربون أمامه إلا في مثل تلك الحفلة وما شابهها.

قال عماد مستهجنا : ابنة خالك عروس الغد تشرب ! أنت درويش يا صديقنا .

ضحك نزيه على وصفه بدرويش ونظر لرافع وقال : أنا لست درويشا .. هنا في القرية زاويتان .. فالزاوية زوايا عائلات .. حضرت بعض حلقاتهم من باب الفضول فلا أفكر بالدروشة يا سيد عماد .. وأما الأخوال فلي سنة أخلاطهم يا شباب.. نعم ، الشراب عندهم كالماء ؛ ولكن والله أعلم اذا صار نصيب بمصاهرتهم لا أقبل شربها.. أما اليوم فمجرد وجهات نظر .. لا سلطة وحكم لي عليها .

قال رافع محذرا : إلا اذا هزمتك ووقعت في حبها .. وجرفك تيار التغريب .. فهو محبوب من خاله باكر وزوجته .. وأغلب أبناءهم ، وحتى بنات خالك شاكر يتقربن إليك ؛ لكن مارينا أكثرهن اهتماما بصديقي نزيه .. أنا أقول ذلك أمام الأخوة حتى لا يصيبك الحرج في العام القادم أمامنا .. فهي سوف تلزق بك.

ضحك الشباب ، وقال سليم : ما دامت علاقتك بها قوية لهذا الحد سيحدث ما يتوقعه رافع! ما قولك يا نعيم بن أشرف .

تبسم نعيم وقال : أنا والأخ نعيم نحب الصمت

قال نعيم الثاني : معك حق يا نعيم ! فليقل خيرا أو ليصمت ، وقالوا الكلام من فضة والصمت من ذهب.

فقال رافع مداعبا : ذهب تركي عثماني ولّا ذهب محلي!

فقال سليم : الذهب ذهب في كل بلدان العالم

صاح نزيه معقبا على كلام ابن عمه عن مارينا : رافع صديق وأخ عزيز .. وكل أفكاري

وأسراري معه .

ـ شكرا ابن عمي ! نزيه صاحب خلق ودين ..فعمي صارم في أمر الصلاة والصيام والدين عامة .. رافقهم للمسرح والسينما والمقاهي الخاصة بهم .. وفي الجملة هو معجب بحياة المدينة ربما أكثر منكم .. وهو يرغب بعد الجامعة بالعمل في المدينة بعكسي أنا .. أنا سأدرس هنا ـ إن شاء الله ـ بعد التخرج .

قال سليم عندما عم الصمت : الريف ممتع إلى حد كبير يا رافع ؛ لكن فرص العمل قليلة فيه للمتعلمين كموظف وصناعة .. هو مجتمع زراعي في الغالب.

قال نعيم اشرف: كلامك صحيح إلى حد كبير ! فأغلب مصانعه ورشات صغيرة لا تستوعب الكثير من الأيدي العاملة .. والمتعلمون أغلبهم يرحل للعمل في المدن .. ولكن بدأت القرية والقرى تكبر وتكثر المؤسسات والمهن والحرف والمصانع المهمة .. لم تعد القرية قرية يا إخوان .. بدأت مصانع تنقل مصانعها إلى أطراف البلدات.. والأسر تزيد وتزيد .. وتنتشر العيادات والمراكز الصحية والمجالس القروية لتطوير القرى.. وأخذ أبناء القرى الذين يعملون في المدن يستثمرون بعض أموالهم في قراهم لتخف الهجرة للمدن الكبرى .

قال نعيم الثاني : نفهم من كلامك يا رافع أن صديقنا عينه على ابنة خاله اذا سمح عمك العزير !

رد رافع مبتسما من العودة لحكاية نزيه : تقول أمي إن امرأة عمي تريد ذلك بكل قوة وحماسة ، وتقول: كما تزوجني يوسف فلنجدد النسب والمصاهرة يا أم مروان مع أخي الكبير .

قال نزيه: أنا لا مانع عندي .. قلت لكم لعلي أهزمها وأعيدها لحظيرة المعتزلة أو .. أو حزب التحرير.

ضحكوا وقال عماد: لدينا نساء وزوجات وبنات وأخوات يحملن أفكار الحزب .. لكن هؤلاء يا شباب من الصعب عودتهم للتدين كما نقرأ ونسمع ممن هم أكبر سنا وأكثر خبرة .. لكن ليس هناك على الله بعزيز .. قد يتوب أحدهم ويرجع .. وفي الغالب يتوجهون إلى

الطرق الصوفية أو إلى جماعة محمد الياس الهندية .

قال نعيم وهو يقف وينفض سرواله مم علق به : حان وقت العودة لسلام يا عماد ! نحتاج إلى ساعتين للوصول لسلام.

قال نزيه : بإمكانكم المبيت .. فلكل عائلة كبيرة دار ضيافة في هذه القرى .. وبيوتنا أيضا ترحب بكم .

قال سليم : أنا أفضل العودة يا إخوان!

قال عماد واقفا : وأنا كذلك .. خلف الله عليكم خيرا .. نشكرك سيد جعد .. لا ندري أكان جعد القديم سخيا مثلك أم لا ؟!

قال رافع ساخرا : اسمه يدل على بخله ، والله اعلم !

قال سليم: أرى أن الاسم لصق بك يا نزيه ! ما تحدثت مع أحدهم في الكلية أو في المقهى وعطفنا على ذكرك إلا قالوا تقصد الشيخ الجعد .

تبسم نزيه وقال : صدقوا يا قوم لا أعرف الكثير عن هذا الجعد .. سمعت أنه ضحي به يوم أضحى

قال نعيم الثاني : يقال إنهم ضحوا به يوم أضحى .. هل يجوز ذلك يا عماد ؟!

صاح عماد : بالطبع لا يجوز لو صح ذلك .. الأضحية فقط من الأنعام الثلاثة .

قال رافع : ثلاث أو أربع!

قال سليم : سمعت أن بعضهم يجيز الأضحية بالديك والأرنب .

قال عماد: لا أظن ذلك صحيحا .. كيف سيوزع هذا الديك يا سليم ؟

قال نزيه: صدقوا لا أعرف الكثير عن الجعد وعن المعتزلة ؛ إنما رؤوس أقلام فقط وأظن أنها فرقة ضعفت أو اختفت ؛ ولكن إخواننا التحرريون يحملون بعضا من فكرهم في قضايا عقدية أشهرها إنكار عذاب القبر ، وجعلهم العقل الحكم على القضايا العقدية كما فعلت المعتزلة القديمة ؛ ربما احتاجوا إليه لمجادلة الملحدين والفرق الأخرى كالصوفية وغيرهم

ومناظرة النصارى واليهود والعلمانيين.

قال عماد: التحرير يأخذ الكثير من الفقه من فقه الأحناف.. فالشيخ النبهاني قاضي شرعي وتعلم في الأزهر .. والقضاء ما زال في بلاد الشام والعراق متأثرا بالفقه الحنفي.. فقه الدولة العثمانية كما هو معلوم .

سليم : حان وقت الانصراف أيها الكرام ـ وتصافح الشبان ـ وقال كما اتفقت مع عماد ونعيم على دعوتكم إلى الغداء في بيت والدي الأسبوع القادم .

قال عماد : أنا قبلت الدعوة .

وقال رافع رافعا سبابته : وأنا نيابة عن نزيه ونعيم قد وافقت.



كان الشباب الثلاثة من جمالة يداومون كل نهار اثنين في نادي الجامعة ،فليتقون برفاقهم نعيم وعماد يتبادلون الأخبار، ونشاطهم الاجتماعي والسياسي ، خاصة نعيم وعماد ، فهما مهتمان بالسياسة والأخبار والكتابة في بعض الصحف اذا سمح لهما بذلك ، ويتابعان ما يحدث من قضايا وطنية أو عالمية ، وتعرفوا بشكل خاص على أحمد وفريد ومصطفى ، فهؤلاء من رواد النادي من طلبة الهندسة ومتدينون ، وسعت بعض الفتيات المترددات على النادي اختراق هذه المجموعة ؛ ولكنهم لأنهم جادون في القراءة ومناقشة الكتب الموجودة والقضايا السياسية والاقتصادية والثقافية ابتعدن عنهم ، وهم أيضا لم يفتحوا لهن المجال للحديث حول الفضائح والموضة والأفلام . كان رفاق الهندسة من أتباع حزب إسلامي نشأ من ثلاث أربع سنوات ، ليس لهم منهاج معين وواضح ، فهم حزب إسلامي قريب من السلطة ، ومدعوم من النظام بشكل واضح لكل ذي عين ، ويركز هذا الحزب على الأخلاق والصوفية أي البعد عن السياسة ، والبعد عن الحكم والتشريع الإسلامي الصريح .

قال احمد معرفا بحزبه وساعيا لتجنيدهم : بما أننا حزب فيحق لنا أن نتكلم في السياسة .. ولكن ليس كل حديثنا سياسة .. هناك أمور أخرى.. ثقافة الشعب اقتصاد الشعب .. أخلاق الشعب .. فالأخلاق السيئة تنتشر بقوة بين الناس الغش والغدر والخيانة .. فنحن نهتم بهذه القضايا التي لا تجد اهتماما كافيا من الفرق الأخرى .. إخواننا التحريريون ـ وأشار لعماد ونعيم ـ يريدون خليفة .. نحن جاء خليفة أو لم يجئ لا يهمنا .. وجماعة جمعية إخواننا الإخوان همهم السلطة ومجلس الشعب وتحرير فلسطين.. ولا ننكر جهادهم في مقارعة اليهود والإنكليز في مصر وفلسطين .. والخلاصة نحن نكمل بعضنا بعضا .. فنحن معترف بنا من النظام وبعيدون عن العنف والانقلابات كما رأينا في سوريا والعراق ومصر .

فقال نعيم : وهل لكم وزراء ونواب؟

قال مصطفى : لنا نواب .. أما وزراء لا .. فنحن حزب حديث يا أخ نعيم .. فنحن نمثل

الإسلام في الدولة ؛ لنكون مع الأحزاب الأخرى .. أحزاب اليمين واليسار .. فنحن الحزب الإسلامي الوحيد في الدولة مع العلمانيين والاشتراكيين والليبراليين .

قال رافع مبتسما : عظيم ! .. هذا عندنا ديمقراطية يا نزيه !.. نحن في القرى لا نسمع بذلك .. أنتم تختلفون عن الإخوان والتحرير والدراويش .. نحن عندنا في جمالة زاويتان للدروشة والقفز .

رد مصطفى قائلا : الإخوان لهم نواب في المجلس.. الإخوان ليسوا حزبا .. إنهم مجرد جمعيات منتشرة في البلاد .. لكنهم يعملون في السياسة .. لذلك لمخالفتهم أنشأ الشيخ تقي النبهاني حزب التحرير والدعوة للخلافة .. وشاركوا في الأردن في الانتخابات وفازوا بمقعد أو اثنين فهم يعترفون بالحكومات وقام الحزب في القدس ابتداء.

وقال احمد : سعى هذا الحزب ليصل للحكم عن طريق الانتخابات والصندوق يا نزيه ! ولكنه لحتى الآن لم يصل.. لم يجدوا من ينصرهم لتحقيق الغاية .. ويعتبرون الحكومة في بلدهم منحرفة لا تريد دينا ولا إسلاما .

قال عماد متحمسا : الإسلام سيحكم كل البلاد

ضحك احمد وقال : والشيوعيون يقولون مثل ذلك .. الشيوعية ستحكم هذا العالم

قال رافع متهكما : والرأسمالية تحلم بذلك .

وقضى الرفاق صيفهم في نادي الجامعة خاصة شباب جمالة ، فكانوا أحيانا ينتقلون لصالات الرياضة قاعة ألعاب الجمباز والرياضات الحركية وممارسة القفز والقفز ، ثم يجتمعون على طعام الغداء في مطعم النادي ، وعلى نفقتهم الخاصة ، وقبل الغروب وبعد صلاة العصر يغادرون النادي على أمل اللقاء الأسبوع القادم .

قال نزيه لرافع وهم يجلسون في الحافلة الذاهبة لجمالة والبلدات التي في الطريق : رأيتك تجلس مع ليلى .. وفي غاية الانسجام.

ردد رافع كلمة انسجام وقال : هي زميلتنا في الكلية ، وأحيانا أتحدث معها كما تعلم .. وقلت

لك أنا فلاح ابن فلاح .. وهي ابنة المدينة .. وأبوها كما نعلم رجل بنوك .. وأيضا هي ملحدة ماركسية لينينية أحبت الحديث معي فقلت لها مستفزا : ألم تجدوا الاله بعد ؟ فضحكت وقالت : ليس لك إلا هذا السؤال يا رافع ؟ هل ترى أن لهذا الوجود ربا ؟ أنت تعلم أن هذا لا يشغل ماركس ولينين كثيرا .. فقلت لها للأسف ولدت بعد هلاكهما ، ولم أشرف باللقاء بهما ..وأنا يا ابن عمي اختلطت بها في نهاية الفصل عندما سمعتها ذات مرة تتحدث مع بعض الزملاء تشكك بالله أمام سارة وعيدة ، ثم رحبت بالحديث معي وتسعد بذلك كما عبرت وفرحت لما علمت أنني اشتركت في النادي .. وهي تطمع وتود بأن أتخلص من رواسب القرية وسذاجتها.

ـ وماذا قلت لها عن وجود الله ؟

قال : ماذا أقول؟ قلت لها مستحيل أن أرى هذا الكون سماء أرض بدون موجد يا ليلى .. العجيب أن الملحدين في الغرب وروسيا لا يفكرون في وجوده كثيرا ؛ إنما تشغل بال شيوعيي العرب وبلاد المسلمين .

قال نزيه : لأننا يا صديقي في بلاد لا تكفر بالله كما كفر أولئك .

ـ قلت المهم لا يمكن أن يكون هذا الكون يا ليلى بدون صانع .. لولا أن أبي تزوج أمي لم أكن أتحدث معك الآن .. هل رأيت مخلوقا بدون أبوين ؟ الكرسي الذي نجلس لا يقبل عقلي أو عقلك أن يكون بدون نجار أو حرفي صنعه وركبه .. لا أدري كيف تعتقدون أن الكون والقمر والأرض بدون مكون موجد ؟! كيف أوجد نفسه عشوائيا أو صدفة أو خلقته الطبيعة كما ترون ؟ فقالت : مذاكر جيدا فضحكت وقلت : لازم نذاكر حتى نستطيع الحديث مع أفكاركم الخبيثة والساذجة ، فقهقهت وقالت : لن تغلب.. نحن لا يهمنا وجود الخالق أو لا يوجد .. نريد أن نصبح أحرارا .. نأكل مما نزرع .. نلبس مما نصنع.. قلت :وهل الدين يعارض ذلك ؟ نتمنى أن نصبح أمة قوية قادرة على فعل ذلك يا ليلى . قالت: وما تقول في خلق الإنسان الأول آدم ليس له أب ولا أم ؟ قلت : هذا خلق خاص وبداية البشر .. لكل

شيء بداية.. البرتقالة التي أمامك لولا المزارع والشجرة التي زرعها والماء والتراب والسماد والرعاية ما صارت برتقالة.. سيارتك التي ابتاعها والدك من صنعها واستوردها وهكذا كنا ندردش يا ابن العم

قال : المهم لا يوجد حب.

قال متعجبا : الحب تركته لك .. هل تريد أن يقضي عليّ أبي وعمي وحتى خالي الشيخ بالزواج من ملحدة ؟!

ـ قد تسلم من جديد.

ـ اذا تزوجت كما يحصل لكل ذكر .. سأتزوج من جمالة .. فبنات جمالة أفضل ونعرف عادات وطباع بعضنا يا بطل !

ـ أصيل يا ابن العم !



منذ سكن نزيه المدينة مع شقيقه الأكبر إبراهيم أخذ يتردد على قصري خاليه شاكر وباكر ، ووجد منهم ترحابا وحفاوة ، وأكثر من اهتم به ابنة خاله باكر الآنسة مارينا التي تدرس في آخر الثانوية العامة ، ووجد انبساطا مريحا كذلك من والدتها ، فكان وجوده مقبولا من جميع الأسرة بشكل عام ، فهو ابن أختهم . وكان يسهر معهم خاصة مع مارينا وأمها رغم أنها لم تكن قريبة لخاله ، وتنادى بأم رشاد ، وكانت تبش له وتستقبله بحماس ، تقول ؛ كأنها رضيت به زوجا لابنتها في المستقبل رغم أنه ابن قرية ابن الريف ، وهو شاب محافظ متدين على غير ما هم عليه . أما إبراهيم فلم ينسجم معهم ومع طباعهم وتقاليدهم المفرطة في محاكة الغرب ، فلم يجازف بالزيارة إلا في المناسبات المهمة كالأعياد وعيادة المريض ، ولا يطيل الجلوس بعكس نزيه الذي قد يقضي ساعات من الليل .

كان الفتى نزيه معجبا كثيرا بأخواله وصعودهم الكبير في الدولة والإدارة والمال ، وكان طامعا بأن يصير مثلهم في تفوقهم المالي والاجتماعي ، وكان معجبا وشاكرا لمارينا التي تهتم به كلما قدم ، وتخدمه بنفسها ، وتتحدث معه بكل أريحية ؛ كأنها فعلا راغبة بالاقتران به ، وكان يكثر تعليقهم بأنها سوف تغير من عاداته وتقاليده القروية ، وكانت تخفف من التبرج والسفور عند مجيئه ، وفي الحقيقة كان يمني النفس بقبولها به قرينا ، وأمه تلمح له حول ذلك وتهيجه بهذا الاتجاه ، وبتجديد المصاهرة بين العائلتين .

كانت مارينا منذ ظهر نزيه في قصرهم لا تظهر أمامه إلا بثياب محتشمة ، لا تلبس القميص القصير الذي يكشف الذراع ونصف العضد أو الكتفين ، وتلبس الفستان الذي يغطي نصف الساقين على الأقل حتى يتحدثان بحرية ، وبدون نظر منه إلى الفراغ خجلا من أن تلتقي عيناهما ، ولا تستخدم المكياج سوى أحمر الشفاه كانت منسجمة معه وأخذت تخفف من جلساتها مع أقاربها وأصدقاء العائلة لتقضي أكثر الوقت مع نزيه اذا زار البيت ، وما أكثر الزيارات المسائية!

كانت تعلم أنه متدين ، وترى كما تحدث والدها وأمها أن ذلك يعود لطبيعة القرية والمحافظة على تقاليد القرية ، كأن الدين لأهل القرى فقط ، فتركا الشابة تتعامل معه بدون تلميحات وتحذيرات كأن حالهم يقولون إنه العريس المناسب في الغد .

اجتازت مارينا الثانوية العامة بنجاح مقبول ، كانت درجاتها أقل من نزيه وبمساعدة والدها ، وعمها الوزير شاكر في تلك الفترة قبلت في كلية التجارة حيث يدرس نزيه . وهنأها نزيه على النجاح ، وقدم لها هدية ، وبارك لها التسجيل في كلية التجارة ، واختارت إدارة العمل للعمل في شركات الأسرة ، كما فعلت أخواتها الأكبر منها وإخوانها .

رحب بها نزيه في مطلع العام الدراسي الجديد ، وفعل مثله رافع الذي تعرف عليها من خلال نزيه العام الفائت ، ورافقهم لحضور بعض الأفلام والمسرحيات في المدينة سلام الدين . وأصبحت رفيقته في ساحات الجامعة والمطاعم والمشارب وأوقات الفراغ من المحاضرات.

وكان هو أيضا يجلس معها في أوقات فراغها ويترك رافعا ونعيما ، كان رافع يجلس قليلا معهم يتبادل معها التحية والصحة والأهل ، ثم ينصرف. كان جل حديثهم حول الملابس والموضة والطعام والسهرات وآخر الأفلام والمسرحيات والنزهات ، واذا توقفت معها بنات الكلية والقريبات يتركهم نزيه ـ لا يحب البقاء في مجلس النساء وحوارهن ـ كانت ابنة خالتها نادية تكثر من اللقاء بها ، فهن في شعبة واحدة ؛ فإذا لم تكن مع شاب أو شابة ترافق مارينا .

وكانت لها ابنة خالة أخرى اسمها جميلة مع رافع في كلية التربية ، وقد عرف ذلك بدخول مارينا الجامعة . وجميلة تفاجأت بقرابة رافع لنزيه ، فهي تعرفت عليه في العام الفائت ، وهي عرفت نزيها من خلال زيارتها لبيت خالتها أم رشاد ، ونزيه عرفها من خلال مارينا والأسرة .

فرافع طالب نشيط في كلية التربية، وطالب رياضيات ، ومعروف بفطنته وذكائه بين الزملاء ، وهو كما علمنا راغب بالعمل مدرسا في القرية أو القرى المجاورة حسب الفرصة ، هو لا يحب المدينة بعكس نزيه ، هذا ما يخبر به ، وحلمه الزواج والبيت والسيارة ، لا يحب الصخب والانفلات ، ويشترك مع نزيه بحب القراءة والمكتبة والنقاش ، ولا يحب السياسة والأحزاب

فهي لا تشغل بال القروي كثيرا.

علمت مارينا أن رفاق نزيه يسمونه الجعد بن درهم أحد زعماء الجهمية والمعتزلة في الزمن العباسي القديم ؛ لأنه اشتهر بالدفاع عن أفكار المعتزلة وتعظيمهم للعقل ويقدمونه على الحديث والوحي ، ويحسنون ما يحسنه العقل ، ويقبحون ما يقبحه العقل والفكر.

وكانت أيضا تكره الكلام عن الماركسية وداروِن ، كان أهم الحديث عندها الأفلام وآخر الأفلام والمسرح ، وآخر ما يعرض من اللباس والمكياج وقصات الشعر ، ولا تحب السياسة والمكتبة والكتب الثقافية ، تمارس الرياضة في الجامعة والنوادي الخاصة بالعائلة ، وكانت لا تفوت رحلة جامعية سواء في كليتها أو كليات أخرى مع صويحباتها ومعارف الأسرة اذا دعيت . أما نزيه يوسف فبعيد عن هذا النشاط ، وشارك مرات معدودة كل سنوات الدراسة في الرحلات الجامعية ، زار بعض المتاحف برفقة رافع ونعيم للفضول والمعرفة ، وكذلك بعض الأثار في سلام .

فكان رافع يقول لنزيه بحضور نعيم أشرف وسليم : لا أعرف كيف تنسجم معها ؟! لا عقل لها .. الفلم المسرحية معرض فلان .. جلب ملابس من فرنسا

قال : ماذا تريد من بنت هكذا ربيت؟ سينما مكياج حفلات سهرات عيد ميلاد ؛ لكني أستمتع بسخافتها .. فمعكم الجد ومعها الهزل والترفيه .. ما رأيك يا سليم؟

ضحك سليم وقال: منك مقبول ؛ بل يا رافع نزيه لا يفكر بابنة خاله .. هو يفكر بأخواله ومراكزهم وكيف يصير مثلهم ؟ وها هو خاله شاكر المليونير والاقتصادي يصبح ضمن الوزارة التي تكونت من شهور هذا المهم عند نزيه.

قال نعيم : هذا الصواب يا رافع .. هو يحب المدينة .. وسوف يعمل في المال مع أهل المال.

قال نزيه : هي تطالع ؛ لكن في مجلات الأزياء وحواء والأفلام يا رافع .. المال موجود .. والعمل لتمضية الوقت .. هل تظن أن راتب الوظيفة يشتري لها ثوبا أو بنطالا أو زجاجة شراب ؟ علينا أن نحمد الله كثيرا أننا ولدنا في الريف والدين .

ـ أخشى أن تذهب بك مع الوقت .

فكر رويدا وقال : عشت سنة معهم ، ولم أمسك كأس شراب ، ولم ألعب الميسر ولو عن درهم واحد .. الحامي الواقي هو الله .. وكما قال سليم أنا أحب أن أصل إلى ما وصلوا فنرفع من قريتنا وحياتنا .. أنت تعرف حياة الفلاح وكفاحه والمطر والموسم والجفاف .. حقيقة وليس سرا قليل من الفتيات جادات حسب علمي .. ومارينا يا رافع كغيرها من البنات جامعة وظيفة زواج وبعض الأطفال وأحلامها اللباس الأجنبي والمطاعم والمأكولات .. والمفاضلة بين المطاعم والطعام.. هل أحدثها عن المعتزلة والأشاعرة والتحرير والإخوان ماركس لينين ستالين خروتشوف الحروب .. هذه مواضيع لا تهتم بها هي وغيرها من الحريم .

قال رافع : ها هن بنات الجامعة ينشطن في الانتخابات ومجالس الجامعة !

قال : كم نسبتهن للذكور ؟ أنت تعلم حبي لطعام المدينة .. وأحب الطعام اللذيذ .. فما جئت المدينة يوما إلا زرت أفضل وأشهر المطاعم .. طعام الريف بسيط

ضحك نعيم وقال ضاحكا : والله سبب مقبول ! ومعقول للبقاء في المدينة يا رافع ! الحياة أكل وشرب ونوم وعمل لبضع سويعات.

ردد رافع: أكيد ابنة الخال تعرف ضعف نزيه نحو الأكل .. فهي تهتم بمعدته وطلب أفضل الأطعمة لعريس المستقبل.

قال نزيه باسما : دار خالي يا ابن عمي .. وهم يرحبون بي منذ وطئت قدماي ديارهم وقصورهم.

قال سليم : تزوجها وأنت تدرس .. فأنت تعلم أن راتبك الوظيفي في أي قطاع ما دمت تهوى أكل المطاعم الراقية لن يكفيك بضع وجبات .

قهقهة الشباب وتابع سليم: فهم سيؤمنون لك الطعام والبيت .

تنهد رفيقهم نزيه بعميق وقال هازّا رأسه : أبي يا سليم مع أنه نسيب وصهر لهم علاقته بهم ضعيفة وباردة ! .. ولا يراهم شيئا ، لا وزارة ولا رئاسة تعني عنده شيئا .. يرى حياة القرية

أفضل حياة .. زراعة شجرة جديدة هي الدنيا والحياة ويقول: لولا الزراعة في رأيه لهلك الناس .. أمي الفاضلة ترى ذلك وترغبني في الزواج من بنات إخوانها .. وتردد من جاور السعداء سعد .. وأخوالي منذ هجروا القرية قلّ اهتمامهم ورعايتهم للقرية .. وباعوا أغلب أملاكهم وضعفت صلتهم بالبلدة .. فلا يأتون إلا في عزاء مهم أو فرح يستفيدون منه .. رغم مشاريعهم الكثيرة في المدينة .. في القرية ولا مشروع حتى زيارتهم لأمي قليل جدا .. لا في عيد ولا في مرض ؛ لكنهم لا يقصرون اذا زارتهم .. فيقدمون لها المال والهدايا.. ولا أدري وصديقي رافع يؤيدني أنني لا أعرف السبب الحقيقي لهذا التباعد والبرود بينهم وبين والدي العزيز .. فهل تراه يقبل أن أتزوج مدنية ومتبرجة ؟.. فأبي وعمي أبناء الريف منذ ولدوا وشبوا.

قال نعيم مواسيا ومشجعا : قد تسطيع تغييرها وتعيدها لحظيرة التوبة اذا كانت راغبة بك حقا .. وهذا الملاحظ هنا .. فهي كما يبدو لنا تلبس ثياب مستوردة؛ ربما من باريس...

قال رافع متهكما : قالت أختها إنهم عندما يذهبون لأوروبا لقضاء إجازة يشترون من باريس ولندن، وحتى طعامهم كثير منه مستورد .. فهم يحبون الأجانب ويمدحونهم كثيرا .. وأنا أشفق على نزيه منهم إن سيطروا عليه .. وتركه للقرية سيضعف مقاومته .. أتمنى أن تعيش البنت معه بسلام إن قدر لهما الزواج .. أقول لكم عمرها ما زارت القرية ..قرية جدها وحيث ولد والدها وعمها .. ولا رأيناها ابدأ تدخل قريتنا للتعرف على قرية أبيها أو تصل رحمها عمتها أم إبراهيم .. والله من كل قلبي أحب أن يحقق أحلامه في المال والمنصب الذي يحلم به .. ها نحن نرى خاله شاكرا وزيرا .

قال نزيه مبررا بذخهم وإسرافهم : هم مثل طبقتهم هنا .. ويشترون الثياب من هنا مثلنا ؛ ولكنهم يتعاملون مع محلات وأسواق تناسب مستواهم الاجتماعي أدعو لي بالزواج منها .. فهؤلاء هل يقبلون بشاب قروي مثلي ؟!

قال سليم ضاحكا : ولماذا كل هذا التقرب والاحتفاء بك يا نزيه لا تتغابى ؟!

قال رافع : وهذه العطور التي تعبق أنوفنا منها !

ضحك نزيه وعلق : أغلبها باريسي .. مدينة العطور .. أكيد أن راتبي لسنة لا يغطي ثمن زجاجة عطر من عطر خالي .. كيف أعيش معها حياة التبرج والبذخ يا رافع ؟!

فأجاب سليم : الحب والهوى يا سيد جعد يذلل كل العقبات .

رافع : كلام سليم .. نتمنى لك كل توفيق معها أو مع غيرها !

قال نزيه باسما :كلنا ـ إن شاء الله ـ سيتزوج يا شباب .. والنساء حظ .. أنا صريح معكم أرغب بها قرينة .. والتغيير بيد الله تعالى اذا نظرت إليّ على أني فلاح سيفشل الزواج بلا شك .. أنا فلاح أرضى بالكفاف والقليل .. المشكلة الكبرى أنها تشرب الخمر ليس الثياب واللباس فقط .. أخبرتني بذلك .. وقللت تعاطيها فقط في الحفلات.

قال رافع : وما أكثر حفلاتهم يا رفاق ! لا يخلو أسبوع إلا ويدعى نزيه لحفلة وسهرة من سهراتهم .

تبسم نزيه معترفا : نعم : يتدربون على ذلك منذ المرحلة الثانوية لن تكون الحياة الزوجية معهم سهلة في نظري ونظر شقيقي إبراهيم .

المعتزلة

ورد لفظ المعتزلة وتردد أثناء حوارات الشباب نزيه وشلته الجامعية طالب كلية التجارة والاقتصاد فرع المحاسبة فمن هم المعتزلة ؟ المعتزلة فرقة من فرق المسلمين كما ورد في أحاديث افتراق الأمة المحمدية إلى طوائف وشيع وأحزاب وفرق ، وأشهرها الشيعة الروافض والقدرية والمرجئة والخوارج ، المعتزلة برزت في مدينة البصرة الكائنة في جنوب العراق المعروف لدينا ، ظهرت البصرة خلال الفتح الإسلامي لبلاد الرافدين فهي إحدى حواضر الإسلام وأمصارهم ، فقد كانت بدايتها في عصر الخليفة الكبير العادل عمر بن الخطاب ، وكانت من أوائل أمصار المسلمين التي شيدت في عصره وهي قرينة الكوفة.

البصرة مدينة العلم والعلماء والزهاد والفكر والفرق ، ففي هذه البلدة برزت طائفة المعتزلة كفرقة عقدية تخالف منهج وطريقة أهل السنة والجماعة في فهم العقيدة الإيمان والكفر والقدر والعقل والنقل والوحي والتحسين والتقبيح وفهم الصفات الإلهية، فرقة كلامية ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري في أواخر العصر الأموي ، وقد ازدهرت في العصر العباسي ، وقد لعبت دوراً رئيسياً سواء على المستوى الديني والسياسي، ولقد غلبت على المعتزلة النزعة العقلية فاعتمدوا على العقل في تأسيس عقائدهم وقدموه على النقل، وقالوا بالفكر قبل السمع، ورفضوا الأحاديث التي لا يقرها العقل حسب وصفهم ، وقالوا بوجوب معرفة الله بالعقل ولو لم يرد شرع بذلك ، وإذا تعارض النص مع العقل قدموا العقل لأنه أصل النص، ولا يتقدم الفرع على الأصل، والحسن والقبح يجب معرفتهما بالعقل، فالعقل بذلك موجب وآمر وناه، لذلك فإنهم قد تطرفوا وغالوا في استخدام العقل وجعلوه حاكماً على النص ، بعكس أهل السنة الذين استخدموا العقل وسيلة لفهم النص وليس حاكماً عليه

ونسبت الفرقة إلى حركة قام بها إمام المعتزلة واصل بن عطاء ، فقد كان من تلاميذ إمام أهل السنة في البصرة ، الإمام المشهور الحسن بن أبي الحسن البصري تلميذ أنس وعدد من علماء الصحابة العظام ، فأنس بن مالك كان مستوطنا البصرة ، وكان الحسن كذلك ، والحسن كان

واعظ زمانه في ذلك الثغر المهم في التاريخ ، وأدرك الحجاج طاغية العراق وبني أمية المعروف ، وابن زياد الثقفيان ، وحكم العراق الإمام الراشد علي على أثر اغتيال الخليفة الراشد عثمان بن عفان. كان واصل في مجلس للحسن أبي سعيد في حلقة علم فاعترض على مسألة مهمة وهي ما يقول السادة العلماء في الحكم على الظالم المسلم الذي يسفك دماء المسلمين على الشبهة هل هو مسلم أم كافر ، فكان الحسن يرى أنه مع ظلمه وبغيه مازال مسلما ، أما واصل واتباعه فرأوه في منزلة بين المنزلتين ، لا مسلم ، ولا كافر ، يعامل في الدنيا كمسلم ، وفي الآخرة كافر في نار جهنم ، واعتزلوا حلقة علم الحسن البصري فقال " اعتزلنا واصل " فسموا المعتزلة لاعتزالهم مجلس علم الحسن ، وقيل غير ذلك. أنكروا الصفات على فهم أهل السنة والجماعة وأهل الحديث كالبخاري ومسلم ، وبرعوا في المناظرات العقلية ، وانتشرت أقوالهم في التوحيد والقدر والعدل وخلق القرآن والمنزلة بين المنزلتين والوعد والوعيد ووجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وشاعت بينهم أقوال الجعد بن درهم وجهم وبشر المريسي في خلق القرآن حتى اقتنع بها الخليفة العباسي المأمون وخلفه ، وأرادوا إجبار العلماء على حمل ونشر مقالتهم ، وظهرت فتنة خلق القرآن في الأمصار ، واستشهد فيها علماء وأتباع العلماء ، وخاض فيها الخاصة والعامة ، واستمرت عقود حتى كان عصر الخليفة المتوكل ابن المعتصم وأوقف هذه البدعة ، وأحيا مذاهب أهل السنة ، وقدمهم على المعتزلة ، ثم أخذت تنحسر رويدا رويدا بدعة فرقة المعتزلة حتى أصبحوا مجرد تاريخ وتراث ، واليوم هناك بعض الفرق والأحزاب تحاول إحياء أفكارهم وأخبارهم بدعم من حكومات وجمعيات وتعظيم العقل، ودوره في العقائد؛ لكن إحياء الميت ليس أمرا بسيطا وسهلا بعد قرون من ضعفه وموته ، حقيقة أن الأفكار والمبادئ الضالة لا تموت ؛ ولكنها تضعف وتجمد ، ثم تحور وتعدل ،فتجد من يهيم بها ويسعى لإحيائها وتنشيطها.

علمتم أن نزيها يسبق ابنة خاله بسنة جامعية واحدة ، وكلاهما من طلبة كلية التجارة ، فمضت الأعوام المتبقية بين مارينا ورفيقاتها وبين رفاقه في الكلية والمقهى والنادي الجامعي ، وكان يتناقش مع الفتيات مع وجود مارينا المواد الدراسية والأسئلة ومراجعة معلومة وموازنة عامة وكان يناقش ويحاور اليساريين والقوميين والناصرين وقبلهم التيار الديني ، وعندما فشلت الوحدة المصرية السورية ، كانت فترة من السخرية من الناصريين والقوميين والبعثيين والقوميين العرب حركة حداد وحبش الحركة القومية التي ظهرت على أثر نكبة فلسطين ٤٨ بين طلاب وخريجي الجامعة الأمريكية في بيروت . وكان يناكف الشيوعيين أتباع ماركس وأنجلز أصحاب البيان الشيوعي الصادر في ١٨٤٨، ورعاع الاتحاد السوفيتي ، ويذكر بجرائمهم اتجاه المسلمين في الشيشان وداغستان والقرم والقوقاز وأفريقيا وآسيا ، وحبهم لسفك الدماء مثل الرأسماليين وممتصي ثروات وخيرات البلاد والشعوب الضعيفة ، ولا يقلون عنهم إجراما .

ويجادل الإسلامين من تحريرين وإخوان وطرقيين والحزب الإسلامي، كان يهاجم الجميع دون هوادة ، ويدافع عن الفرق الإسلامية المنحرفة كالمعتزلة والشيعة الاثني عشرية والخوارج ، حتى اشتهر بين الطلبة بجعد بن درهم القائل بخلق القرآن ، حتى أنه كان يدافع عن عباد البقر وبوذا لإغاظة مناقشيه باسم حرية الاعتقاد ولا إكراه في الدين كما نصت آية البقرة . فكان رافع يطلق عليه المجادل الأول على مستوى الجامعة، وكما قلنا قضى سنوات الجامعة بين مقهى الجامعة والنادي وسهرات أخواله ومناسباتهم التي لا تنتهي ، وقليلا ما يفوت فرصة لزيارتهم حتى وضح واشتهر أن الشاب راغب بالزواج من مارينا ، وكانا كأنهما مخطوبان.

وهي نفسها كانت تحس وتشعر ؛ كأنها مخطوبة لابن عمتها بدون عقد ، وبدون خاتم ، ترغب بأن تتزوجه كفكرة مجردة ، وهي تزعم أمام صديقاتها وبنات العائلة بعدم رغبتها بالزواج المبكر والحمل والولادة .

إبراهيم سعى وكان يحاول كبح جماح نزيه عن ابنة خالهما باكر ، ويحذره من التمادي في العلاقة معها ، ولا يعود لزمن المراهقة ، وقصص الحب الفارغة ، وكان معجبا بشقيقه بثباته على الصلاة والصيام حتى أنه في شهر الصيام لا يذهب إليهم إلا قليلا ، فهم لا يوجد لديهم شهر رمضان ، وطقوسه وصيامه ، ومائدة إفطار لا أحد يصوم .

التقوا جميعا في مقهى الجامعة ، وكانوا يودعون أنفسهم بقرب التخرج والاندماج في سوق الشغل ، ويتذكرون الأيام والساعات الجميلة التي مرت بهم خلال السنوات الأربع والجدال والقيل والقال ، والأحداث الصاخبة، وهم على أمل أن تستمر الصداقة إلى النهاية ، وألا تدفعهم الحياة العملية على عدم اللقاء ، وعليهم الانضمام إلى نادي خريجي كلية التجارة الكائن في قلب مدينة سلام في شارع البحر الأحمر للحديث والحوار والتشارك في تناول وجبة جماعية ، فأيام الجامعة من اللحظات التي لا تنسى في تاريخ الطالب في المرحلة التي تفصل بين طلاب الثانوية والحياة العملية والأسرة والزواج.

جرت مراسم التخرج كما خططت لها إدارة الجامعة في حفل سنوي ، ولباس خاص ، ووزعت الشهادات ، وأخذت الصور الثابتة والمتحركة ، وودع الطلاب بعضهم ، وتمنوا لبعضهم النجاح والتوفيق والعمل . وتمنت مارينا وصديقاتها الحياة السعيدة لنزيه وابن عمه خريج كلية التربية ، وطلبت مارينا منه أن يزورها بعد عودته للريف ولا ينساها ، وأملت أن يوفق والدها بتعينه في وزارة المالية ، وتمنت أختها له ذلك .

قالت مارينا : أما زال إبراهيم في الشقة ؟

قال : نعم ، فهو يتدرب على المحاماة .. سنتا تدريب حتى يتمكن من مزاولة المهنة ، وهو يحلم بأن يكون قاضيا في الدولة، وسيحقق ذلك بمشيئة الله ، وهو على وشك الزواج من ابنة دكتور درسه فترة، فقد يلتحق بمعهد القضاء الوطني.

هتفت : يستاهل.. هو شاب جاد وناجح .. وأنت ماذا ستفعل بعد العودة إلى القرية؟ لا أدري كيف يعيش الناس في تلك القرى المغلقة؟!

نزيه يعلم جهل مارينا وأسرة خاليه بحياة القرى والفلاحين الشجر والبقر ، فهم يظنون أن سكان القرى في غابات وأدغال أفريقيا . أجاب مبتسما وعالما بضحالة فكر مارينا واختها : سأعود للقرية . وتنهد

قالت : مر علينا كلما تشتاق إلينا .. فنحن نرحب بك دائما .. فأنت كما تعلم جوليا أضفت لحياتنا شيئا جديدا .. فأمي وأبي يعتبرانك منا .. لقد فزت بقلوب الجميع .. وكنت فاضلا ومحترما ... فكم تحبك أمي !

ـ القلوب عند بعض .. لقد اعتبرتني كابن لها .. وأمي تعترف بفضلها ووقوفها وأسرتها وخالي باكر معي .

أكدت جوليا معنى كلام شقيقتها مارينا ، وكانت العائلة سعيدة بحبه لهم ، وأنها تهتم بسماع أحاديثك وأخبارك في القرية أو المدينة .

فقال مفعما بحبهم له : أعرف عمق الود بيننا .. وأربع سنوات بينكم أمر مهم .. وخالي وعدني بالمساعدة للعمل في وزارة المالية معهم .. وأن اختياري للمحاسبة كان موفقا .. وبارك لي نجاحي .

قالت جوليا مؤكدة: أبي جاد في ذلك .. ليس مجرد مجاملة .. ويتوقع لك مستقبلا جميلا مثله في مستقبل الأيام .. ولابد أنه وضح لك ذلك .

قال : نعم ، نعم ، لم يقصر جزاه الله خيرا .

قالت جوليا :لا تنسى صداقتنا يا نزيه! فمارينا تراك بعين المحب .

ضحكوا على الغمز والتلميح وقال : قد يتحقق ذلك وخلال شهور ستلحق بي ثم أنت .

قالت : أكيد أكيد يا ابن عمتي ! الأيام تمضي كغمضة عين .

قضى أياما في المدينة للحصول على وثائق الجامعة من شهادات وكشوف الدرجات وودع خاليه والأسرة ذكورا وإناثا ، وترك إبراهيم ، وعاد للريف وقلبه معلق بالوظيفة الموعودة وفوقها مارينا رفيقة السنوات الأربع .

الزواج والحرب

رجع نزيه يوسف للقرية مرغما، فقد انتهت سنوات الدراسة ، وترك قلبه ورغبته للحياة في المدينة وآملا بالعودة السريعة ، وقد قدم طلب استخدام وعمل في وزارة المالية كمحاسب ؛ وذلك حسب تعليمات خاله باكر . وكان يساعد الوالد في إدارة المزارع والتجارة في البلدة ، حدثه والده عن الزواج والاستقرار في البلدة ، وأن يدع التفكير في الحياة في المدينة والعمل فيها وليعمل مدرسا في البلدة وما حولها من القرى .

وأراد يوسف تزويجه ، فتحدثت أمه مع شقيقها باكر حول زواج نزيه من مارينا ، فتعجب باكر من سرعة يوسف في تزويجه ، وأدرك غاية يوسف من العجلة ، فشدوا الأخوان شاكر وباكر الرحال للقرية ، وتناقشوا مع يوسف في زواج مارينا من نزيه، والشاب لديه رغبة فيها ، والبنت لها رغبة فيه ، وأن الشاب مستقبله في المدينة ، وأمامه المستقبل في الدولة.

قبل يوسف رغبة ابنه في زواجه من بنت أخ زوجته ، واعتذر لصديقه قديس وشاع خبر الضغط على يوسف في البلدة الريفية فتألم وقبل ، ورحل نزيه للمدينة وقد تعين موظفا في احدى دوائر المالية ، وتزوج في مطلع عام ١٩٦٥ قبل أن تختم مارينا جامعتها بفصل واحد ، وهو الأخير ، وقبل حرب ٦٧حزيران الشهيرة ؛ حيث دمرت إسرائيل الدول العربية باحتلال الضفة الغربية من مملكة الأردن ، وسيناء المصرية ، وجبال الجولان السورية في حرب سريعة ، أيام قليلة حرب سميت النكسة ، وآخرون سموها حرب الأيام الستة ، وكانت هزيمة فادحة ولم يقم بعدها للعرب قائمة ، ولليوم الجولان مع إسرائيل ، وكذلك الضفة، وسيناء أخليت من إسرائيل بمعاهدات سياسية ، وبدون جيش مصري فيها. كانت هزيمة ساحقة ما زالت تعاني منها الدول العربية ، ونشأت منظمات فلسطينية لتحرير فلسطين من النهر إلى البحر، ولليوم لم يتحقق هذه الشعار والهدف . نشأت في منتصف الستينات منظمة التحرير الفلسطينية ، وحركة فتح وغيرها من الحركات ذات توجهات أيدولوجية مختلفة إلى حد التناقض في الهدف والغاية والوسائل ، وزاد تشرذم العرب نحو الشرق والغرب والضياع.

اشتعلت الحروب الأهلية في الدول العربية في الأردن وسوريا ولبنان والعراق واليمن . الفلسطينيون خاضوا حربا مع النظام الحاكم في عمان ، وسحقوا ، ورحلوا إلى لبنان ، وهناك وقعت حرب بينهم وبين طوائف لبنان ، استمرت لعام ١٩٩٠ حتى هدأت بخسارة للجميع وطردت المنظمة لعدة دول عربية بعيدة عن حدود فلسطين.

حرب لبنان شغلت دول العالم الكبرى ، تجمعت أجهزة مخابرات العالم ووكالات الصحافة والأنباء العالمية ، تورطت فيها إسرائيل سوريا العراق مصر الخليج العربي ، لقاءات اجتماعات لجان قمم عربية إسلامية اغتيالات انسحابات ، ولم يسفر ذلك عن شيء مهم .

وكان صاحبنا نزيه ـ كما سنفصل ـ قد اختفى وابتعد عن الحرب ، وعاش في الأرجنتين هاربا من مارينا وخاليه ،وفتحت عليه الدنيا والتجارة كما سيتبين في الصفحات القادمة.

القرية تكبر بكثرة السكان ، وبكثرة البناء السكني ، ولما تكثر الأسر بالزواج تكبر القرية ، تدخل فيها الصناعات الخفيفة والمشاغل والمتاجر تصبح نصف مدينة ، لم تعد جمالة قرية صغيرة ، كثرت المدارس ، زاد عدد الأطباء ، كثرت العيادات ، تقوم على أطرافها المصانع ؛ فتصبح ؛ كأنها مدينة صغيرة .. هكذا أصبحت قرية جمالة التابعة لمدينة سلام الدين قرية السيد نزيه يوسف الجمالي .. نسبة إليها، ولم يكن المولود الفرد لأبيه يوسف كما ذكر آنفا .

القرية الكبيرة جمالة تسكنها عائلات من أصول شتى ، لم تكن من عائلة أو حمولة واحدة ، بل من أسر كثير؛ ولكنك تستطيع أن تقول إن العائلات تصاهرت مع الكثير من الأسر الأخرى عادة مشاكل ونزاعات القرية أقل من نزاعات المدن ، ولابد من المشاكل والصراعات ، والتنافس موجود في القرى كما هو موجود في المدن ، القرية مدينة صغيرة .

الحكومات تهتم بإنشاء الطرق والشوارع المسفلتة خاصة في القرى المهمة ؛ لتسهيل نقل الثمار والمزروعات إلى المدينة ؛ ولتقل حوادث الطرق ، المدينة بحاجة لخضار وفواكه من المزارع أغلب الأيام ، ومن الاستيراد الخارجي كذلك . كانت تتوفر الطرق والبنية التحتية في القرية جمالة ، وما جاورها من البلدات فكانت تتوفر فيها المدارس والعيادات والجمعيات وهي تابعة إداريا لمدينة سلام ، فبينها وبين المدينة سلام عدة بلدات.

والتنقل بينها وبين مركز سلام ميسور وسهل في أقل من ساعتين يكون الراكب في أحدهما .

دخل نزيه الطفل المدرسة الأولى في البلدة مثله مثل سائر أبناء وأطفال البلدة وأخوته ذكورا وإناثا ، وتمتد الدراسة الرسمية عشر سنوات بعد سن السابعة وبعد انتهاء الثانوية ، إما أن يدرس في معهد فني حرفي لمدة سنتين أو يلتحق بالجامعة في مدينة سلام.

في القرية معاهد زراعية ؛ لأنها قرية تكثر فيها المزارع والحقول ، وتقام مثل المعاهد بين عدة قرى لخدمة أبناء عدة بلدات ، ومعاهد مهنية أيضا ، لا يوجد فيها جامعة ، فمن يرغب في تكميل الجامعة عليه الدراسة في المدن الكبيرة ، وينتج عن ذلك إما السكن في المدينة لتوفير

الوقت وقت التنقل بين البلدة والمدينة أو يسافر بأي وسيلة نقل بينهما كل نهار ، وكل الأهالي يكون لهم أقارب في المدينة للعمل كموظفين في دواوين الحكومة أو الشركات التجارية أو الصناعية . كانت الدراسة في القرى عشر سنوات بعد سن السابعة ، ويدرس الصغار في مدارس الروضة قبل المرحلة الأساسية ، ثم عامان المرحلة الثانوية ثم الكليات المتوسطة بعشرات التخصصات ، أو الجامعة بعشرات الاختيارات.

كان والد نزيه صاحب هذه الحكاية متعلما ، ومحبا لتعليم الأبناء بغض النظر عن الجنس ، وكان يقرأ في كتب القدماء ويقتني ما تيسر منها ، ومجالسا لشيخ الجامع وعلماء القرية أثناء تواجدهم في القرية لزيارة أهليهم وأقاربهم رغم العمل الزراعي والحيواني ، أهل الأرياف يقبلون على التعليم مثل أهل المدن ، والأنظمة المعاصرة قوانينها تلزم الآباء بتعليم أبناهم المرحلة الأساسية على الأقل ؛ لذلك تقوم الحكومات الحديثة والعصرية بإنشاء المدارس في المدن والأرياف إما بناء أو استئجارا ، وتمنع القوانين المعاصرة عمالة الأطفال ، وتعاقب أصحاب العمل والأهالي .. فالابتدائي إلزامي لكل الأطفال .

انتقل الشاب اليافع للمدينة مع الكثير من أقرانه للدراسة الجامعية في مدينة سلام ليدرس في كليات التجارة كما أحب واختار ، وكما شجعه أشقاء أمه عندما باركوا له بالنجاح .

كان والده يوسف الجمالي محسوبا من الأغنياء في البلدة جمالة وما حولها ، فهو تاجر مهم يتاجر في المواشي الابل ، ويتاجر في الأغنام والعجول والألبان والأجبان والسمن والزبدة ، ويملك أراضي خاصة به يقوم على زراعتها ومتابعتها ، ويصدر فواكها إلى المدن الكبيرة المحيطة في البلدة . نقول هذا لتعلم ؛ أنه لم يكن الشاب يعوزه المال واللباس للدراسة والحياة في المدينة تحت رعاية أخواله وشقيقه الأكبر الذي سبقه لدراسة القانون في سلام ، كان يتردد على منازل أخواله وخالاته في كل المناسبات ، وكانت تعجبه حياة المدينة أكثر من حياة الريف ، وهو دخل كلية التجارة ليعمل في شركات أخواله أو الحكومة ، مع اندماجه في سهرات وحفلات خاليه شاكر وباكر ما ترك الصلاة والصيام ، ولم يقرب الخمر والزنا .. ومن البداية التقى بابنة

خاله مارينا ، وكانت تقرب منه أكثر من غيرها من بنات العائلة ، وكانت تحرص على دعوته في كل مناسبة اجتماعية أو طعام في البيت حتى قيل إن بينهما مشروع زواج، مع أن هذا مجرد كلام رغم انسجامهما ، فالشاب بالنسبة لهم متدين ، ومارينا لا تعرف صلاة ولا طهارة ولا صيام إنما حوارات واحاديث ؛ ولكنها كانت تراعي اللبس أمامه وفي حضرته ، وكانت الأسرة ترى أن تغييره وتقبله لعاداتهم وطباعهم بعد هجرهم للقرية قد تسمح باقترانه بها .. فهو ابن أختهم .. إذن كانوا يرون تغيره من صفات القرية المحافظة إلى سفور وانفتاح المدينة قد يوافقون على زواجه منها.. فتعلم منها الجلوس مع الفتيات في منازلهم أو في الجامعة .. تعلم منها ومن إخوتها ذكورا وإناثا الذهاب لدور السينما والمسارح ، حضور حفلات خاصة في نوادي أخواله .. رأى الحياة المنفتحة كما يدعون في المدينة .. وكان يرى الكثير من المواقف والمشاهد السيئة حسب بيئة القرية ، وقد ترتكب من أجلها المشاجرات والمنازعات لو جرت في الريف . تخرج الابن الأكبر ليوسف من كلية الحقوق وكان الوالد يخاطبه على انفراد بعدما انصرف المهنئون وكان الحديث في الدكان في سوق البلدة : إذن ستعود للمدينة للعمل في مكتب محاماة .

ـ نعم سأتدرب كم سنة ، ثم اشتغل في وزارة العدل ، ثم سلك القضاء مع مرور العمر اذا شاء ربي .

ـ والزواج !كنا نتزوج قبل بلوغ العشرين!

ـ الدكتور نوار صاحبك ، حدثني عن ابنته المحامية نجاح التي ستتخرج الموسم القادم .. قال أبوك صديقي وابن قريتي فأنا أحب أن نتناسب يا إبراهيم ..وأنا عرفت معدنك خلال سنوات الكلية .. ونجاح تحدثت عنك ..ففهمت مغزى كلامها .. شاور الوالد .

عادت الذكريات بيوسف إلى أيام الطفولة واللعب والركض واللهو مع الدكتور نوار ، ثم رحيل الأسرة لسلام والدراسة والزواج فقال : صديق عزيز ! ونعم النسيب .. اذا أنت لك رغبة بمصاهرته أنا لا مانع لدي يا إبراهيم !

ـ أنا ما زلت أفكر يا أبي .

ـ نزيه ما أخباره مع أخواله؟

بعد صمت يسير أجاب أباه : كما يقال هم يرسمون عليه .. وكأنهم يرغبون به نسيبا لهم .. فعلاقته مع ابنة الخال باكر قوية .. دائما تعزمه على الحفلات والولائم وهو مندمج معهم وحتى أنها بحضوره تلبس ملابس حشمة إلى حد ما .. لقد قبلت بعض مناسبتهم .. ربما يحتاجهم المرء في بعض الظروف والمعاملات .

ـ الصلاة .

ـ هذا هو العجيب .. هو ملتزم بالصلاة وفي رمضان نادرا ما يذهب إليهم .. يتبادلون الاحاديث على التلفون .. فهم كما تعرف هجروا الدين والعبادات منذ فارقوا القرية.. وتجارتهم ومصانعهم كبيرة .. وخالي شاكر رأس كبير في الاستثمار وأوشك أن يكون وزيرا للصناعة .. والخال باكر رأس في وزارة المالية يشار له بالبنان.

ـ أنت غير منسجم معهم !

ابتسم إبراهيم : أخوالي ! ..لكن أحوالهم لا أرتاح لها الشراب والخنزير والتعري لا أحبه .. الناس تتغير لا تنحط هذا رأيي .. هم أحرار كما يقول نزيه هذا منهجهم وسلوكهم في الحياة تجد بناتهم وشبابهم في خلاعة .. لكن السيد جعد ـ ضحك ـ أعني نزيها الذي يتبنى بعض أفكار جماعة الاعتزال الذين يمجدون العقل والتحسين العقلي فرقة ظهرت قديما وقويت شوكتها من بعض أبناء الخليفة هارون الرشيد.. لابد أنك قرأت عنها .

ـ نعم ، نعم .. هم أتباع واصل بن عطاء .

ـ صحيح ! فنزيه يحمل بعض أفكارهم حتى يقال إن بعض رفاق الجامعة يسمونه جعد بن درهم الجهمي المعتزلي ؛ ربما مناكفة لزملائه .. ففكر المعتزلة أصبح ضعيفا .. ولا أحد يدافع عنه .. أصبح نظريا لا تأثير له على العوام ؛ وإنما حمله أناس سعيا للسلطة والحكم .

ـ اذا تحب الزواج فأنا جاهز والمال متوفر بفضل الله .

ـ بنت الدكتور نوار تحتاج لسنة حتى تنهي كليتها .. ننتظر ربما تغيرها السنة .. والكلام لأبيها فحسب.

ـ وقتما تشاء.. فخير الله موجود ولو كانت ابنة صديقنا نوار.

فتخرج صديقنا نزيه يوسف من كلية التجارة كما تخرج سابقوه ، ويتخرج الدارسون بعد إكمال اربع سنوات في الكلية الجامعية ، وهو اليوم ابن ثلاث وعشرين سنة . عاد للقرية مستقرا فيها ليعمل مع والده في التجارة أو يعمل موظفا في ديوان الدولة أو شركات خاصة أو في أحد البنوك أو التعليم والمعارف إداريا أو مدرسا .. أمامه المجال واسعا.

تعاظمت علاقة نزيه بأخواله في مدينة سلام خلال سنوات الجامعة ، كان يتردد على بيوتهم بأريحية ويجلس مع شبابهم وبناتهم بدون حرج ؛ كأنه يجلس في مجالس ومطاعم الكليات، يشاركهم الكثير من الاجتماعيات ..السهرات ..المناقشات .. طرفهم .. ومواقفهم.. وقصصهم ، لم يشعر بينهم بأي حرج .. يحدثهم عن أخباره في البلدة في الكلية .. كان يرغب بالعمل معهم بعد التخرج كما لمسنا في حديثنا عن حياته أثناء فصول الجامعة ، وكان يرى مستقبله في مجاورتهم أو التوظف في قطاع الحكومة ؛ ليكون مثلهم أو أكثر .. فشقيقه إبراهيم ظل يعيش في سلام ، ومازال يقطن البيت المستأجر ، وهو يفكر بالزواج من ابنة الدكتور نوار للبقاء في المدينة والدراسات العليا وهذا ما حصل .

فهم أي أخواله من أثرياء المدينة من رجالات الدولة ، فهم باعوا أكثر أملاكهم في جمالة قديما وسكنوا المدينة وعملوا في التجارة والصناعة والقليل من الزراعة .. وكانوا أهل نفوذ مع رجالات الدولة .. وكانت ابنة خاله الأنسة مارينا تستلطف نزيه وقريبة منه خلال فترة الجامعة .. وكان معجبا بها ، وكانت أمه تود أن يقترن بها على غير رغبة والده يوسف الذي يراهم من غير أخلاق ،وهو من طبقة وهم من طبقة .. فحياتهم الخاصة خمور سفور اختلاط انحلال .. حياة لا تعجب الفلاح والقروي والمتدين .

كان خاله باكر قد أقنعه بالعمل موظفا في الحكومة ؛ ليكون شيئا ما في مستقبل الأيام مثلهم ..

وسهل توظيفه بنفسه ومعارفه وقوة شقيقه الأكبر شاكر. فرحل إلى المدينة بتشجيع من أمه وموافقة من أبيه على مضض وعدم ارتياح ، اشتغل في دائرة مالية لوزارة التجارة حيث يعمل أبناء خال له . عادة موظفو الحكومة الرسميين مرتباتهم أقل من أشباههم في القطاع غير الحكومي فراتبه ضئيل مقارنه مع القطاع الأهلي .

أخبره والده يوسف بعد أسابيع من عمله رغبته بتزويجه من ابنة أحد العاملين معه في جمالة ابنة صديقه قديس الأنسة نهلة قديس ، فلم يبد رفضا فبدل أن يبقى في شقته وحيدا رحب بالفكرة والعرض .

قال الوالد : أحببت أن أزوجك ابنة صاحبي قديس لتقوية الصلة والمحبة بيننا ، فنحن نعمل سوية من سنوات كما تخبر .. وعنده خمس بنات.. وحدثته بالأمر فرحب بذلك .. وقال شاور نزيه وأنا سأتكلم مع نهلة.. فاسمها نهلة وهي ستنهي الجامعة مطلع الصيف .

قال نزيه مجاملا : العم أبو أحمد رجل فاضل .. إن شاء الله الرحمن الرحيم أفكر يا أبي .. ويكون الأمر كما تشاء وتحب .

قال الأب : فكر فكر .. أنا أحب صديقنا وشريكنا في بعض الأعمال منذ سنوات ولا تقول إني أضغط عليك .. بما أننا زوجنا إبراهيم .. وأنت تلي إبراهيم فأحب أن أقوي علاقتي بالسيد قديس بالمصاهرة ، ولا يعني هذا إجبارك .. يجب أن تكون مقتنعا بالأمر وبالبنت يا ولدي .. أنت تعلمت وتخرجت من الجامعة وموظف فتعرف مصلحتك.. فكر فكر مرة ثانية ، ثم أسمعني جوابك .. سمعت من أمك أن أخوالك يرغبون بتزويجك من بناتهم .. أنا لا مانع لديّ اذا كانت رغبتك حقا ؛ لكن لهم عاداتهم التي لا تروق لي .. لكن أنت الذي سيتزوج ..

ـ جزاك الله خيرا

تابع الأب : وأنا أحب تزويجك ؛لأنك تسكن وحيدا في شقتك أو بيتك المستأجر

ـ إن شاء الله

ـ الله يجمعنا على خير اذا كان لك نصيب في بنت أبي احمد .

عرض الأب على نزيه الزواج من ابنة قديس أحمد وترك له الخيار والتفكير ، وأن يرد عليه في زيارته القادمة للقرية .. فالشاب لما تدبر أخواله عمله في وظيفة مالية في المدينة سلام رحل إليها ، واستأجر شقة في حي جمال الدين الأفغاني والشارع يحمل نفس الاسم .

فلما سمع شاكر خاله الكبير بالمشروع ورغبة والده يوسف أقنعه بالزواج من ابنة شقيقه باكر مارينا ابنة خاله ، وهي متعلمة مثله وستعمل في شركات الأسرة ، ولها رغبة به ، كان بينهما ود أثناء إقامته في المدينة .

قال شاكر لشقيقه باكر بضيق : الرجل يريد أن يسبقنا .

وسافر شاكر للقرية ، وأقنع يوسف إبراهيم بحسن الزواج من ابنة خاله ، وزعم أن الشاب يرغب فيها منذ دخل سلام ، وأنهم سوى القرابة أصدقاء ، وأنهم سيدعمونه للزواج من ابنة شقيقه باكر ، وبعد جدل ونقاش رضخ يوسف لرغبتهم . فاضطر يوسف للاعتذار لصديقه قديس ، وحدثه عن رغبة أشقاء زوجته بتزويجه من ابنتهم ، وقبل الرجل الاعتذار .

والفتاة نهلة متعلمة ومتخرجة من جامعة الأندلس العربية فتزوجها ابن عمها خالد .

كانت مارينا باكر لديها هوى بنزيه منذ جاء للمدينة وحتى والديها كانوا يرونه زوجا مناسبا ، وأن تدينه سيذهب ويخف مع مرور الزمن كما حصل معهم .. فحياة المدينة تختلف عن حياة الريف ، ومشاغل المدينة أكثر من مشاغل القرية والرجل له سنوات قريبا منهم ، ولم يشكُ من طباعهم وتقاليدهم التي يعيبها المتدينون ويرونها بعيدة عن الدين . . والحق التدين في المدينة أوعى وأفضل من القرية ، فالجهل كبير في القرى ، وتدينهم فطري ، فتجد بينهم عادات وتقاليد جاهلية وبدع أكثر من المدن .

مارينا لم تكن متعجلة على الزواج ، وكانت أصغر سنا من نزيه بسنة تقريبا أي من نفس السن والجيل ، وكانا في كلية واحدة كلية التجارة كما مر معكم ، كان هو في شعبة المحاسبة المالية ، وكانت هي في شعبة إدارة المال والعمل ، ولقب نزيه بجعد بينهم ، وهو اسم أطلق عليه من رفاق الكلية لاهتمامه بفرقة المعتزلة القديمة أثناء محاضرة ، قال المحاضر : أنت مثل جعد بن

درهم يا نزيه ! وانتشر الاسم كدعابة ونقلت هذه السخرية لخارج الكلية ،ولأسرة أخواله فأصبح ينادى بنزيه الجعد ، فقبل الأمر . وكان نزيه بالنسبة لأسرة أخواله وأقاربهم متدينا وملتزما وشيخا حيث يطلق هذا الوصف على المتدين ، فهو يحافظ على الصلاة ويتردد على الجوامع ويصوم شهر الصيام هكذا تعود وتربى .

تزوج ابنة خاله ، واشتروا لها شقة خاصة كهدية ، فسكت الشاب فهو متخرج منذ شهور فقط ويعمل موظفا من شهور أيضا، وهم أهل، فأمه أختهم وعمة مارينا. كان سعيدا ومنتشيا بزواجه منها ، وقد راوده هذا الحلم عندما أكثر من الاختلاط بهم ، وكان يرى الأمر صعبا ، فلم ير أحدا تزوج منهم منذ تركوا القرية ، كانوا يرون أنفسهم أنهم أكبر من القرية وناسها، ولا يصاهرون إلا الأسر الثرية والنافذة مثلهم . كان نزيه يرى كيف يستقبلهم رجالات القرية عندما يحضرون لعزاء ، فيكون في رفقتهم سيد المجلس للقرية ويحتفون بهم كأنهم ملوك .

قبلت مارينا الزواج خشية أن تفقده ، لقد وافق هواها ؛ ولكنها كانت تفضل تأخر الاقتران ، فقد أحب والده أن يسارع في زواجه خشية زواجه منها ، وقد تدخل عمها شاكر بقوة من أجل ذلك ، وكانت أسرتها ترغب به قرينا لها عند الزواج ، ولدت له المرأة أربعة أطفال في بضع سنين في أقل من عشرة سنوات ، وكان الرجل محبا للذرية أكثر منها ، مثل والده ، وأهل القرى غالبا يحبون الذرية الكثيرة .

كان نزيه راغبا بابنة خاله باكر منذ وضع قدميه في دارهم وقصرهم ، وكانت أمها تحبه وتوده أيام الجامعة ، وتتصل بوالدته وتطمئن على صحتها وأحوالها باستمرار ، والشاب كان يأمل أن يؤثر على مارينا اذا نكحها أن تقلع عن عاداتها السيئة ؛ كأن تترك السفور ، ولبس ملابس التشبه بالذكور والخروج بالبنطال والقميص الذي يكشف الساعد ونصف العضد أو اليد كلها بحكم أنها زوجة ، وأصبح له عليها سلطة وقوامة ، لم ينجح ، لم تترك التبرج للشارع ، والاختلاط في الحفلات ، والرقص مع أصدقاء ، لم تترك شرب الخمر ولا التدخين ، وجد نفسه مجرد زوج وذكر ، لا صلاة ولا رمضان ، وجد نفسه ضعيفا أمام تيار التغريب ؛ بل

وجدهم يسعون بقوة لتغريبه لتحويله إلى نمط حياتهم، فيدعونه لمصاحبة زوجاتهم وبناتهم والخلوة ، وأن هذا عين الحرية والحداثة والتقدم والحضارة ، رغم السنوات العشر من المعاشرة الزوجية وصحبته لها لم تتغير لم تتأقلم ظلت على ما شبت عليه ، وهو بفضل الله ونصائح إبراهيم ظل ثابتا على أصالته ، فمارينا لم تقم بزيارة واحدة للقرية لزيارة عمتها أو حماها ، وكانت عمتها تأتي بشخصها وذاتها لتهنئتها بولادة وبمناسبة .. كانت زوجة إبراهيم تجاملها في المناسبات كولادة وأعياد وتزورها في شقتها ، أما هي فلم تفعل ولو مرة واحدة ، وتركت امرأة إبراهيم تلك المجاملة لما بدأت تنشب في حياتها الزوجية النزاعات حتى لا يظن أنها تتدخل في شأنهم حتى إبراهيم كف عن تلك الزيارات الشخصية ؛ وإنما يطمئن على شقيقه بالهاتف أو يزوره نزيه أو يلتقيان في مكان عام .

ولدت مارينا بداية ابنها ناصر ، وبعد سنتين جاء سامي ثم ميساء ونداء وبعدئذ مرضت مرضا خطرا ، عجزت منه عن الحمل وهذا لا يهمها ؛ بل أسعدها وغم قرينها ، والأخطر أنها أصبحت كلما يحصل بينهما جماع واتصال جنسي تصاب بنزيف المهبل والرحم ، أصابها عقم ونزيف ، ولم يعرف سببه ، فبعد كل اتصال جنسي يحدث النزيف ، وتحمل للعيادات ، ولم يشخص الأطباء وأهل الاختصاص السبب ، وبعضم نسبه لمشاكل هرمونية ، وضاق الشاب بهذا الحال ، وأصبحت كل معاشرة فضيحة ودكتور ، وتبع ذلك نزاعات عائلية ، وكرهت المرأة أي اتصال جنسي وتعتبره اغتصاب ، وأخذت تشير له أن يبحث ويتصل بالخليلات ، فهي عاجزة عن تلبية حاجته تلك فيقول محتجا : أهذا حل يا بنت الحلال ؟! آلجأ للزنا والمومسات .. أنا لست عمك وعمي باكر .. أنا أصلي وأعبد الحي القيوم .. أنا لست في أمريكا أو فرنسا !

ـ ما الحل ؟! أنا أبحث عن العلاج والدواء ، فقدت الكثير من الدم جراء أي لقاء

ـ وأنا ما ذنبي ولماذا يتزوج الناس ؟!

قالت بصياح وحدة : الحل يا حبيبي الزواج عليّ .. أنا لا أقبل .. وأبي يرفض .. نحن لا نؤمن

بالتعدد ..وليس عندنا دين.. أهلي تركوا الدين للمزارعين .. وعمي يرفض بشدة .. وكل إخوتي وأخواتي وأزواجهن .

قال بغضب وجنون : الزنا عندي مرفوض .. والخدن والعشيقات مرفوض .

ووصل الزواج لعشر سنوات دون شفاء مع كثرة المعالجات والفحوصات حتى أخبر الرجل أنه سيتزوج عليها ضرة وقد طفح الكيل. أخواله رفضوا هذا الحل ، وهي كذلك رفضت هذا الحل إلا بطلاقها ، ووالدها وشقيقه رفضوا الزواج عليها والطلاق .

زار شاكر الجمالي المليونير وباكر مدير الجمرك القومي بيت نزيه وبعد الترحيب والتظاهر بالغضب والضيق قال شاكر الذي كان وزيرا سابقا : يا سيد نزيه! نحن أحببناك لأنك ابن أختنا وعاشرتنا ولمسنا هواك معنا .. وكنا نراك قريبا من مارينا أيام انتقالك للدراسة .. ومارينا أعجبت بك .. فقبلنا أن تكون قرينا لابنة أخي ، وهذا المرض لم يجد له الأطباء لحتى علاج حاسم .. ويقولون إنه مع الزمن يزول .. صحيح أن لك ثلاث سنوات تعاني وزوجتك من العلاقة الخاصة .. فعليك الصبر .. وأنت متدين .

ـ لي ثلاث سنوات صابر يا خالي الكبير.. تربيتي يا جماعة لا تسمح لي المبيت مع بنات الهوى .. وهذا لا يتوافق مع تديني

ـ والحل يا أبا ناصر

قال متوسلا : الحل أن أتزوج أخرى .. أفضل لي ولها .. الحل أن تسمحوا لي بذلك.

قال باكر : يا ابن أختي هذا لا يرضينا ، ولا يرضي مارينا أم أطفالك الأربعة

ـ هذا اضطرار يا خالي العزيز

ـ لا نراه اضطرارا .. كما قال لك خالك شاكر الأطباء قالوا سيزول.. أرسلناكم لفرنسا من أجلك ، وهم فشلوا في منع النزيف.. اصبر بضع سنوات

قال : أنا لم تعد عند طاقة للصبر ؛ ليكن زواجي حالة استثنائية

قال شاكر : هذا مغلق.. لن نقبل زواجك ثانية

ـ هناك الطلاق .. ننهي العلاقة بالمعروف

قال باكر : نحن عندنا الزواج على رأيهم كاثوليكي

ـ نحن عندنا الزواج إسلامي

قال شاكر : فكر بحل آخر لا زواج ولا طلاق دبرك نفسك

قال : الحرام

قال شاكر : تجنب الاتصال المباشر

قال : كيف ستلد ؟!

وأصبحت الزوجة عصبية ، وزاد شربها للكحول ، واشتهرت بذلك ، وشاعت المشاكل والنزاعات بينهم واشتدت ، وتدفعه للبحث عن البغايا وبنات الهوى لقضاء شهوته ورغبته الجنسية ، فيقول : هذا الحل عندك.. أنا المتدين أقضي شهوتي في أحضان المريضات بالزهري

ـ طلقني

قال : أبوك وعمك يرفضان والشرع يجيز الزواج ...

قطعت جملته صارخة : أنا كما تعلم لا أعرف شرعا ولا دينا.. أنا لا أدري كيف رضيت بك شريك فراش وأنت مجرد فلاح ؟

قال بجنون : بل أنا الذي عليه أن يسأل هذا السؤال .. وهو يعلم أنك تسكرين وتخالطين القريب والغريب.. ولا احترام لزوج وتقدير

أمست مارينا باكر عصبية جدا ومتوترة دائما ، وتغضب لأتفه المشاكل ، وأصبحت حياة جعد حياة نكد ، وهروب إلى المقاهي والتجمعات ، ولم تنته النزاعات والحرد والزعل بهروبه ، فلما يحضر في نصف الليل تتجدد الصرخات والسباب والتعيير ، أو يجدها ما زالت تسهر وتخمر مع رفاقها وزوجاتهم وبناتهم .. فيتصايحون وينقلب إلى حجرته مغموما متمزقا .

فترك المدينة نحو القرية هربا من المشاجرات والفضائح والحياة الكئيبة، يغيب بضعة أيام ، وأكثر من أخذ الإجازات ، وترتب على ذلك كثرة الأخطاء في العمل فاضطرت الدائرة إلى

تنزيل رتبته من رئيس قسم في دائرة المحاسبة إلى موظف في مكتب صغير ، وسمع من مديره أنه قد ينقل إلى قسم في احدى دوائر العمل في وزارة العمل والتشغيل في مدينة أخرى .

فقال ساخطا : أعرف أن السيد باكر الجمالي وراء كل هذا التضييق .. يريد أن يعرفني حجمي رغم كل هذه السنوات من العمل والانضباط !.. وكم أثنيت عليّ أنت يا عيسى .

ولما أصبح يكثر من المبيت في البلدة أشاعت مارينا أنه تزوج سرا في القرية ، واتهمته في ذلك رغم تأكيد والدها وعمها أنه لم يفعل ذلك ؛ إنما لجأ للقرية من التعب النفسي من المشاكل الدائمة بينهم ، وعجزهم عن حلها والتفاهم .

ذهبت مارينا لفرنسا للعلاج من النزيف ومشاكل الجماع ، ولم تخرج بنتيجة جيدة كما ذكرنا في سطور سابقة .وكان لنزيه ابن عم قد هاجر قديما للأرجنتين في أمريكا الجنوبية ، ولما جاء زائرا وسمع بمشكلة نزيه ، أقنعه بالهجرة معه ، ووجد ذلك ارتياحا لدى نزيه وتشجيعا من أبيه يوسف ، وكان الوالد يعلم شقاء نزيه مع زوجه وأهلها ، فوافق على رحيله خفية عن أهل امرأته وعن أمه أم إبراهيم ، وذلك نتيجة أنهم يرفضون زواجه عليها ، ويرفضون طلاقه لها ليتزوج أخرى .

وقدم استقالته للدائرة التي يعمل فيها قبل نقله لمركز عمل جديد ، وظن خاله باكر أنه يفعل ذلك للضغط عليهم ويغيظه ، وأنه ليس بحاجة للوظيفة ، وأنه سيعمل عملا حرا في القرية ، وتظاهر هو بذلك ، وطلب من مارينا أن تستعد للرحيل إلى القرية ، وهذا رفضته في أول زواجهما فكيف اليوم ؟ فهي مع مرور سنوات على الزواج لم تقم بزيارة واحدة للقرية ، فرفضت من جديد ، وهو يعلم ذلك ، وأصرت على البقاء في مدينة سلام ، فتظاهر بالغضب والسخط ، ورجع للقرية زاعما النقمة والحرد ، وعلى حين غفلة من أهلها سافر مع ابن عمه طلال إلى إسبانيا ، ومنها لبيونس آيرس . ولما علم والد مارينا بسفره ، وتيقن منه ذهب للقرية وتشاجر مع أخته وزوجها يوسف، فانكرا معرفتهما بخطة نزيه .

فقال يوسف بعصبية وردة فعل غاضبة : الحق عليك وعلى ابنتك .. الرجل لا يستطيع يا باكر

العيش والعفاف بدون زوجة .. أولادي وأنت تعرف لا يقبلون العشيقات وبنات الليل .. علمتهم على طهارة الذيل والعفة .. فابنتكم لم تعد صالحة للمعاشرة الزوجية .. وقد عالجتموها في داخل وخارج البلاد ولم تتحسن ولها أكثر من سنوات .. صحيح المرض قدر والعلاج قدر .. فالزوجة الثانية تؤدي الغرض المطلوب .. واعلم يا باكر بأنني سأتزوج على أختك قبلتم أو لم تقبلوا .. لم .. لم أعد أخشاكم واحترمكم .



الصراع في سوريا

كونت سوريا صداعا وصراعا لبعض الدول العربية مصر الأردن السعودية العراق منذ رحلة الاستقلال عن الاستعمار الفرنسي ، فكان المصريون يطمعون بحكم سوريا ، وتحقق لهم ذلك بما سمي الوحدة المصرية السورية ، عندما تنازل القوتلي لناصر وإعلان الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨. الجمهورية العربية المتحدة هو الاسم الرسمي للكيان السياسي المتشكل إثر الوحدة بين جمهوريتي مصر وسوريا ، أعلنت الوحدة في ٢٢ شباط ١٩٥٨ بتوقيع ميثاق الجمهورية المتحدة من قبل الرئيسين السوري شكري القوتلي والمصري جمال عبد الناصر .

اختير عبد الناصر رئيسًا ، والقاهرة عاصمة للجمهورية الجديدة ، تم توحيد برلماني البلدين في مجلس الأمة بالقاهرة ، وألغيت الوزارات الإقليمية لصالح وزارة موحدة في القاهرة أيضًا .

أنهيت الوحدة بانقلاب عسكري في دمشق يوم ٢٨ أيلول ١٩٦١ ، وأعلنت سوريا عن قيام الجمهورية العربية السورية، بينما احتفظت مصر باسم الجمهورية العربية المتحدة حتى عام ١٩٧١عندما سميت باسمها الحالي جمهورية مصر العربية وذلك بعد موت الزعيم القومي ناصر . والهاشميون القادمون من الحجاز هم أول من حكم سوريا بعد الحرب الأولى وما سمي بالحكومة الفيصلية التي قضت عليها فرنسا ، واستعمرت سوريا عقدين من الزمان وشكلت جمهورية بعد فصل لبنان وفلسطين والأردن عنها ، وعجز ملك ومؤسس الأردن الحديث من ضمها لملكه ، والملك السعودي عبد العزيز وخلفه طمعا في السيطرة عليها ، فكان صراع كبير يدور حولها سرا وجهرا والعراق مرات وكرات سعى للوحدة مع سوريا ، نجحت مؤامرة سايكس بيكو في تفتيت أملاك آل عثمان ، تحررت سوريا من الفرنسيين ، وعاشت فترة انقلابات تقرب من العشرين حتى استقر الحكم للعلويين باسم البعث ، حزب قومي عربي حكم العراق وسوريا ، وحاول في دول أخرى.

سقطت سوريا البعثية في مستنقع لبنان في السبعينات ، وفقدت الكثير من شبابها وثروتها فيه ، مرة تقف مع المارونيين حكام لبنان ، ومرة مع الفرق الأخرى وتصارعت مع إسرائيل على

أرض لبنان ، وجرت حرب أهلية بعد الثمانين في ربوع سوريا مع الإسلام الإخواني ، وما زال حكم العلويين مستمرا باسم البعث ، وهي دولة غير مستقرة وفقيرة ، وقد فقدت جبال الجولان عام ٦٧، وما زالت لا تحرك ساكنا من أجلها ؛ ولكنها دولة يحسب لها حسابها في صراع الشرق الأوسط القائم منذ سقوط الحكم العثماني عن بلاد الشام ، وخضوع هذه البلاد للانتداب والاستبداد ، وفي سنة١٩٩٠ همدت الحرب الأهلية في لبنان باتفاق الطائف بين الطوائف . لبنان وبلاد الشام كلها دول هشة بالجمل سياسيا واقتصاديا ، تعتمد على دعم الدول القوية والدول الغنية بالقروض والمعونات والهبات . وسمع نزيه الكثير عن سوريا ولبنان في مهجره الأرجنتيني لوجود أعداد كثيرة من المهاجرين السوريين واللبنانيين في الأرجنتين ، وفي دول أمريكا الجنوبية ، فهناك جاليات عربية كبيرة ، ربما الشوام أكثرهم.

عرب الأرجنتين هم المواطنون الأرجنتينيون أو المقيمون بها ذوي أصول عربية قدموا خلال موجات هجرة مختلفة ، لديهم هوية لغوية وثقافية واحدة ، ينحدر أغلبهم من لبنان و سوريا و المغرب، يقال عرب الأرجنتين من أكبر مجموعات الشتات العربي في العالم ، حتى مع التنوع العرقي والديني و اللغوي للأرجنتين فإن العرب الأرجنتينيين يحملون تراثا تشترك فيه اللغة ، الثقافة والتقاليد السياسية.

الزواج المختلط عال جدا ما بين الأعراق عند الجالية العربية، بغض النظر عن الانتماء الديني معظم أفراد الجالية لديهم والد واحد من أصل عربي ، نتيجة لذلك ، ظهر تحول ملحوظ عن اللغة العربية ، قلةٌ من يتكلمون العربية، غالبا ما تقتصر هذه المعرفة في الكلمات الأساسية عكس الأغلبية خاصة الأجيال الأصغر سنا، والتي تتكلم الإسبانية كلغة أولى لأنها اللغة الرسمية الأولى للبلاد .

فنزيه يوسف منذ حط رحله هناك تزوج امرأة شامية ، وولدت له أربعة مواليد مثل مارينا ، والشوام فتحوا له المجال للتجارة والعمل في الغربة والمهجر .

هو سافر مطلع ست وسبعين ، فأهل الغرب العرب يسعدون بزواج بناتهم من أبناء العرب ،

والمهاجرون يرونها فرصة للاستقرار ونسيان البلاد ، فهم يحبون ذلك لتقارب عاداتهم وثقافتهم وديانتهم ، والاشتراك في اللغة العربية ، وتأتي الأخبار الحسنة والسيئة عن أهليهم وأقاربهم في أوطانهم ، وقصة الجاسوس الإسرائيلي كوهين وحياته وقتا في الأرجنتين قصة متداولة بينهم ، وجواسيس الأسد موجودة بينهم ، وسمعوا عن مذابح الأسد والبعث في حماة وعموم سوريا وتل الزعتر في لبنان ، تردد صدى هذه المجازر بين أبناء سوريا الكبرى في الغربة . هي أخبار مثيرة ومؤلمة للأسر العربية الشامية، فمنهم من فقد بعض أهله وأقاربه. ولا ينسى الشوام وصول كارلوس منعم ذوي الأصول العربية السورية لحكم بلاد الأرجنتين .

حدثت ثورة تاريخية في ايران هزت دول العالم عام ١٩٧٩ ، بزعامة عالم شيعي اسمه علي الخميني على ملكية ايران ، وهرب الشاه ، وتسلم الحكم حكومة دينية شيعية إسلامية ، اهتز الشرق الأوسط والعالم ، قدم الخميني من آخر منافيه في فرنسا على طائرة فرنسية إلى طهران عاصمة محمد رضا بهلوي وبلاد فارس ، وانتهى حكم السفاك جهاز مخابرات بهلوي.

وقام الثوار بسفك دم الكثير من رجال هذا الجهاز وضباط الجيش بعملية تطهير ضخمة ، واستطاعت أمريكا وأتباعها تحميس العراق لمحاربة الخميني بحرب دموية كانت خدمة للاستعمار اكثر من خدمتها للقضايا العربية ، دفع فيها العراق الغالي والنفيس والرخيص ، خسرت البشر والثروة الكبيرة ، وخرجت من الحرب مهيضة الجناح ، غارقة في ديون ومليارات تحتاج لمائة سنة لسدادها ، وسميت هذه الحرب الطويلة حرب الخليج الأولى . كانت ورطة كبيرة سقط فيها العرب ،كما سقطوا في حروبهم مع إسرائيل، دامت الحرب ثمانية أعوام ، خسر فيها الفريقان ملايين البشر ومليارات الأموال ، ولم ينتصر أحد على الآخر، وكان القتال ؛ لأن العراق تطلق على الخليج العربي والطرف الثاني يسميه الخليج الفارسي ، وبعض الأرض الحدودية مختلف عليها . وكانت الثورة والحرب بعد سفر نزيه بسنوات ثلاث أصبح العراق بلدا فقيرا وضعيفا بعد أن كان دائنا، أصبح مدينا لدول خليجية وغيرها من الدول التي زودته بالسلاح ، والحرب مجهولة السبب الحقيقي في النهاية .

ولما سكتت المدافع شرقا دخل العراق في حرب الكويت ، وجيشت الجيوش لتحريرها من الغزاة العراقيين ، وهزم العراق هزيمة ماحقة ، وتعرض لغزو أمريكي شرس ، وحوصر حصارا قاهرا لسنوات قبل أن يدخل الجيش الأمريكي بغداد . كانت مغامرات عسكرية رهيبة لقادة العراق أصابت الأمة العراقية بمقتل ، وحدث في مطلع التسعينيات انهيار المنظومة السوفيتية والشيوعية ، وسقطت سقوطا مدويا ، وأصبحت في خبر كان .

وكل هذه الأحداث التي أشرنا إليها وغيرها وصاحبنا نزيه يعيش في الغربة وراء الأطلسي غربه في حياة هادئة سعيدة .

كان نزيه كغيره يتابع ويسمع الأخبار والانهيار ، ويفرح اذا فرح المهاجرون ، ويحزن اذا حزنوا على أحداث الشرق ودمار الدول ، فبعد عام ٢٠٠٣ وسقوط بغداد المدوي والسريع ، وقد احتلها الأمريكان ، وانهوا حكم البعث فكر نزيه بالعودة لسلام وجمالة ، وكان تحقيق ذلك في العام التالي ، عاد بعد غربة امتدت اكثر من خمس وعشرين عاما .

إذن ترك جعد المدينة تحت ضغط الواقع ، وخشية اشتداد النزاع بينه وبين زوجته أولا وأخواله ثانيا ، وفي النهاية خرج خفية مهاجرا جهة الغرب إلى أمريكا الجنوبية للعمل مع ابن عمه طلال وذريته وأنسبائه ، وترك زوجة غاضبة ناقمة وأطفالا صغارا أربعة .

كان بكره ناصر عند الهرب والهجرة ابن عشر سنوات ، وكان يرسل المال لأبيه للإنفاق على الأولاد ، والشقة في سلام كما مر معنا كانت هدية للزوجة من والدها وعمها عند الزواج ، فالغربة لم تنسيه أطفاله والأمانة الملقاة على عاتقه والمسؤولية التربوية ، حياته أصبحت جحيما في المدينة . كتبنا أن باكرا وشاكرا الجمالي عرفوا بهرب زوج ابنتهم إلى الغرب ونجح بالانفكاك منهم وعنهم ، فاسقط في أيديهم ، وهناك لابد أن يتزوج ، وهذا دافعه المهم للخروج للغرب وربما تطلق البنت غيابا في محاكم الغرب التي ترفض التعدد طبعا ، وأصابهم الغيظ والسخط والغضب حتى تسببوا بزواج يوسف على أختهم ، ولولا تدخل أخوة نزيه وأهل القرية لساقوا أم إبراهيم أختهم للمدينة ، والمرأة أيضا للحق رفضت المسير معهم ، وأن أبناءها شباب يستطيعون الوقوف معها والقيام بالواجب اذا قصر يوسف ، ولم يحصل أن مد يوسف يده عليها يوما أو قصر في حقها ، فهي أم أولاده الثمانية ، فاضطروا للصمت رغم العداء السافر بين الفريقين ، وهم في قرارة أنفسهم يرغبون ببقائها ، فأم إبراهيم لها خمسة من الذكور وثلاث إناث ، فقد رفض الأبناء الطلاق والرحيل ، والأب لم يتحدث عن طلاق ما دامت قابلة زواجه فصمتوا على الهزيمة المعنوية التي أحاطت بهم .

ومارينا نفسها رفضت أن تطلب الطلاق، ولن تتزوج مرة أخرى كما تحدث بعضهم حتى ولو جاءت قسيمة طلاقها من الغرب .

وقالت : سوف أصبر ، مصيره العودة .. ولن يطيق الغربة والبعد عن العائلة.

لم يصب ظنها وهاجسها، ولم تأت قسيمة الطلاق، بل أتاهم خبر زواجه فور استقراره في العاصمة الأرجنتينية. ولكن طال الرجوع ، ولم يأتهم كتاب بطلاقها حتى أنها كانت ترفض

أن يكتبوا له ليطلقها ؛ لأنهم سمعوا من بعض إخوته أبناء أختهم أنه تزوج هناك ويحيا حياة طيبة ، ويتقدم في عمله وشغله .

أهملت مارينا في تربية الأطفال نتيجة تركها وصدمتها ، ولم تكترث لهم ؛ كأنهم أولاد نزيه فقط وكان شغلها الشاغل الانتقام الانتقام من أولادها نكاية بأبيهم الهارب ؛ لذلك كانت المربية هي التي تقوم على رعايتهم ؛ فلذلك شب الأولاد لا يرونها أما لهم . ولم تكن تكترث بهم وبهمومهم ومشاكلهم اليومية ودراستهم ، وأخوالهم وجدهم باكر مثلها ومثلهم ، وكانت تلوم أمها ووالدها بتزويجها له وهو القروي الفقير ، ونسيت أنها هي التي كانت تهواه وتراه رجل الغد والزوج المطلوب .. فتقضي وقتا بسبه وشتمه ولعنه ولعن الساعة التي تعرفت عليه فيها، كانت المرأة في بعض المناسبات العائلية وما أكثرها تشرب حتى الثمالة زاعمة لأهلها أنها تريد نسيان سنوات الظلم والاغتصاب من زوجها .

ترك ناصر المدرسة بعد فشله في الثانوية العامة ، ولم يسع للإعادة ، واتجه للعمل مصلحا للسيارات الصغيرة الصالون بمساعدة زميل سبقه إليها تاركا المدرسة قبل سنتين ، وناصر هذا أعجبته مهنة تصليح السيارات والتحق في محل صديقه لؤي ، وكان يتردد عليه سابقا ، فقد استهوته فكرة تصليح السيارات ومغرما بها ويحلم بصناعة سيارة تطير ، فلذلك لما رسب في الدراسة اشتغل مع زميله لؤي ، وبعد حين فتحا محلا أو محطة تصليح مع شاب أكبر منهما بسنتين وأقدم منهما وأكثر خبرة منهما .

وسكت جده باكر على اختياره وفشله ، واعتبره ابن أبيه الفاشل ، ولم يعتب على ابنته بكلمة ولوم ، وترك ابنته تفعل ما تراه من فجور وفسق .

أما ناصر فنهاره عمل وليله فسق وفجور ، فقد غرق في الدعارة والحانات والسفر لقضاء الشهوات والبغاء ، وأمه لم تهتم بسيرته ؛ لأنها مثله أصبحت تصادق هذا ثم هذا ، وعرفت بالسوء والطيش في وسط الأسرة ، لا هم لها إلا الشراب والسهرات والحفلات، تريد الانتقام من نزيه ومن نفسها ، وحاول والدها وأمها وإخوتها بعض الحين صرفها عن التهتك والمجون

بدون مناسبة وهوس فتزجرهم بكل كلام نابي فيلوذون بالصمت فهم مثلها في الانحلال الخلقي.. وفاقد الشي لا يعطيه . فكانت تعمل حفلات وسهرات في بيتها ، وتخلق مناسبات وأحوال لهذا الضياع والتهتك ، تساير عصابتها في المجون والفساد لا رادع لها ، وكذا مرة غازلت أزواج صاحبتها ، وقضت معهم مغامرات جنسية شاذة كلما سمح لها بدنها العليل بذلك، فكان السكر والطعام والغناء والطرب أهم أعمالها في الليل ، ومنها تعلم ناصر وسامي الانحلال والفساد والزنا .

كبر ناصر في هذا الجو الماجن ؛ لذلك كان يرفض فكرة الزواج ، لقد تعقد منه ، وأمام ضغط جده باكر وللتغطية على فجوره وسيرته القبيحة أجبروه على الزواج ، فرضخ واستسلم لهم ، وتزوج من فتاة على شاكلتهم ، وبعد شهور من العيش معها وجدها أفجر منه ، فلم يعد يطيق معاشرتها والحياة معها ، فطردها شر طردة بعد أن لطمها عدة لطمات أثناء سكره وسكرها ، وحدث الانفصال بدون طلاق ؛ ربما البعد يحببهم ببعض هكذا اقترحوا عليهما ، لقد رفضها بكل قوة ، وظل يعيش مع العاهرات وبنات الهوى المومسات حتى أصابه حادث سير وهو عائد لبيت أمه من حفلة ماجنة ، وسبب الحادث له إعاقة ، وأصبح عاجزا عن خدمة نفسه ، ويتحرك على عجلة ، فزادت مشاجراته مع أمه ، ولم يعد يصمت ويحتمل حفلاتها وسهراتها وعشاقها في البيت ، وصار يتهمها بالفجور والفحش مباشرة دون حياء أو خجل، وأنها تخلت عن العناية بهم صغارا ورمتهم للشارع ، ويدعوها لتمارس فحشها خارج البيت ، وأنها هي التي علمتهم على الفحش والنساء والسكر ، ومضاجعة بنات صديقاتها ونساء أصحابها دون حياء دون أخلاق بحجة الانتقام من زوجها الهارب منها.

وتحدث المشاكل والصراعات والصياح واللعن والقبح والدفع والزق ، ويحضر الأخوال والأجداد لتخفيف حدة النزاع أو نقلها للمستشفيات والعيادات، ومرات تتدخل الشرطة ، وأصبحت حياة الأسرة لا تطاق ، وسفروه أوروبا للعلاج ، وقضى عاما في ربوعها حتى استطاع المشي على عكازات ، وتخلى عن العجلة ، وسعوا لإعادة زوجته إليه ؛ لكنها رفضت

وهو رفض قائلا: وأنا قوي تفجر ! فكيف وأنا ضعيف عاجز عن خدمة نفسي .

وطالبت المرأة الطلاق الرسمي ؛ لكنه رفض الطلاق بشدة ، وهكذا كان وضعه عندما رجع والده من غربته وهجرته .

****

سامي أصغر من ناصر بسنتين كانت فترة مراهقته سيئة كشقيقه اختلاط بالنساء والبنات ، والشراب كشقيقه وأبناء أخواله وخالاته في سلام ، بيئة لا تراعي السن والأخلاق الفاضلة.

لما نجح في الثانوية العامة التحق بكلية الحقوق في الجامعة الوطنية في مدينة سلام واستمر على منوال الأسرة ، يعني من التهتك والرضى بما يحدث في الشقة من حفلات ولعب ميسر وألفاظ بذيئة تقشعر منها الأبدان ، لا تحس أنك في بيت محترم حتى أن بعض الجيران تأذوا من سهرهم وصياحهم وطربهم ؛ كأنهم في ملهى ليلي صاخب . حتى أن باكرا تحدث معها أن تخفف من سهراتها البيتية وعبثها ، فقد تحدثت معه بعض دوريات ومرتبات الأمن والآداب ، والسيد شاكر أشار إلى ذلك في اتصال وقال: كأنك ما صدقت وتخلصت من نزيه .. أنت تنتقمين من نفسك ليس منه ! فغضبت منه فصرخ فيها هائجا : اعرفي مقامك يا ساقطة أنا عمك . وأغلق هاتفه في وجهها .

وجاءت الشرطة وأخذوها لنقطة شرطة ، وعملت تعهدا بألا تزعج الجيران ، ثم مشت بصحبة باكر إلى بيت أو قصر شاكر واعتذرت وترجت .

فقال مودعا : لك الحرية أن تفعلي ما تشائين ؛ لكن لا تؤذي الجيران حتى يصل الأمر أن تتكلم معنا الشرطة .. لعنة الله عليك مع السلامة .

لما تخرج سامي محاميا عمل في احدى شركات القانون ، وزوجه خاله شاكر من احدى بنات ابنه إسكندر الأنسة جود إسكندر ، وكانت معرفة بينهما قبل الجامعة فهي بنت ابن جده شاكر شقيق جده باكر ، وولدت له طفلا سماه ماهرا.

قال لأمه ذات مساء : سمعت أن جدي يوسف مريض فلدي رغبة بزيارته والاطمئنان عليه

مباشرة.

صاحت صارخة : مائة مرة مرضنا ، وما زارنا ، وأنا ما زلت امرأة ابنه.

ضخك سخرية وقال : جميل ! جميل قولك إنك امرأة ابنه .. فعلا جميل قولك هذا ! هو الكبير يا مارينا باكر ، وهو والد أبينا يا سيدة مارينا!

صرخت : كلم جدك ووالد جود قبل الجنون.. فنحن من سنوات لا نلتقي حتى في جنازات القرية .

قال : وما دخل هؤلاء في زيارتي يا مارينا ؟

ـ هم الذين اعتنوا بكم وزوجوك ابنتهم.

قهقهة عاليا وصرخ في وجهها : لا تكذبي ، لم يعتني بنا أحد .. ولم يربنا أحد .. هل تعلم الزنا والسكر اعتناء؟ .. دعينا من ذكرهم يا سيدة مارينا .. أنا قررت وسأذهب ؛ لكني أحببت إخبارك حتى لا تسمعي من المغرضين .. هم أهلنا شئنا أم أبينا !

قالت بهزء : صار لكم أهل بعدما كبرناكم !

فصرخ في وجهها : على حساب من درست وتعلمت وأكلت ولبست وصرفت .. لم تدفعي درهما واحدا أنت وأشقاؤك يا سيدة مارينا يا أم ناصر ! .. علاج ناصر كان من جيب أبي .. نحن كبرنا .. فسادنا وقبحنا أنت سببه .. انتقمت من الهارب منك منا نحن !

هاجت وماجت وشتمت ولعنت ثم قالت وهي تجلس نصف عارية : أبوكم تخلى عنكم .. هرب مثل الجبان .

صاح : أبونا لم يتخل عنا .. أنت تخليت عنا .. رفضت زواجه لما أصبحت غير صالحة للمعاشرة الصحيحة .. نحن لما كبرنا عرفنا التفاصيل .. فاضطر للهرب للأرجنتين .. أنتم منعتموه من الزواج والطلاق.. نحن اليوم نعرف كل شيء .. وضياع ناصر وهروبنا للسكر أنت سببه .. لما نراك تقبلين رجلا وتمزحين معه بشهوة .. كان علينا أن نصمت ونغمض أعيننا .. زوجتيه عاهرة.. بنت صديقة .. أبوها غني مثلنا أخوها كذا وكذا.. وفشل زواج

ميساء أنت أيضا سببه حتى أنها كرهت الرجال والبيت الخاص .. وهي تعيش في وسط كومة من الرجال الذئاب ليس لهم إلا الحملقة في النساء والسعي للفاحشة منهن .

صرخت : كبرت فعلا يا سامي !

ـ قطعا كبرت وصرت محاميا وأفهم في القانون.

صاحت: لا تنسى يا حضرة المحامي أن زوجتك جدها عمي .

ـ ماذا يعني هذا يا أم ناصر نزيه ؟!

قالت : يعني أنك تغضب زوجتك وأباها وجدها .

ـ كلام فارغ ! وهل زيارة الجد يوسف تضايق أباك وأهلك ووالد جود؟!

فقالت بضيق : طبعا هناك ضرر .. وسمعة وكرامة .. نحن أعداء .. ألم يرميني أبوك ؛ كأنني خرقة بالية بعدما عقمت ومرضت بسببه .

قال : من حقه الزواج .. هل يزني رجل متدين ؟ وأنت تزوجتيه وهو متدين يا أم ناصر .. لم يطرأ عليه التدين فجأة .. لم يتغير .. وتركك على ما ربيت عليه .. لم يصير مثله منا سوى نداء .. ضعنا وراء الكؤوس والفروج .. ماذا جنينا إلا الريب في زوجاتنا وأمهاتنا ؟! .. هو لم يهدد بالطلاق إلا للضغط عليك وعلى أهلك .

قالت : وهل من حقه طلاقي بعد أن جعلنا منه موظفا مهما ، وأتلف بدني بالخلفة ؟ يريد أن ألد كما ولدت أمه مليون بني آدم .

قال: للقربى لم يطلق كما علمت ..والدين يسمح له بالزواج عليك .

صرخت بغيظ وقهر : وهل له دين ؟ كان متخذا التدين تغطية لفحشه وتفحشه

قطع كلامها ليقول : لم يخبر أحد بذلك .. لا داعي للتبلي والافتراء.. أبي متدين منذ جاء لدراسة الجامعة في سلام .. ولقب بجعد المعتزلي ؛ لأنه متدين ويكرر اسم جعد وأتباعه في كل حوار يجري بين الطلاب .. فهو كان يصلي ويصوم .. وعلمت أن كل أعمامي مثله وعلى شاكلته .

قالت بسخرية : هذا أنت مطلع على سيرة حياة أبيك وأسرته !

تبسم قائلا : لست طفلا غرا يا أم ناصر .. لم يصدف أن أراك تسجدين يوما لله

ـ تركنا الدين في جمالة قبل أن أولد يا حضرة المحامي الفاشل !

ـ هذا اختيارك .. وتركتينا نعمل بالفواسق حتى ترتكبين فواحشك بحرية

قالت بسخرية : صلي ومن يمنعك ؟

صرخ : أنت!

قالت بدهشة : أنا ! كيف يا لعين؟

قال مبينا : لقد نشأنا على استهتارك بالشرف والكرامة.. الحياة ملذات وشهوات

ـ العري القائم والاستهتار بالشرف والأعراض! هكذا نشأت وربيت

قال حاقدا : لم تراع لنا حياء وأننا صغار .. تبرجك الصارخ قدام زوارك وسكرك .. لا تجعلي من نفسك امرأة شهيدة وصالحة ومظلومة .. نحن اليوم نعرف بعض أكثر .. فنفهم معنى التعري والتبرج .. ولنا كما للناس أعين .. وأنا صغير كم مرة رأيتك تخرجين من غرفة نومك شبه عارية ذاهبة للحمام ، ويكون بعضهم في فراشك كنت أسمع بعض كلامكم القذر لما كبرت فهمته .

قالت بغير اكتراث : يا لك من شيطان !.. لم أكن أحسب لكم أي حساب .. أنتم أبناء اللعين

ـ إذن دعي الشرف يا ...

صرخت بغل وجنون : أنا حرة .. هذه حياتي .. والجسد جسدي

ضحك عاليا وقال: هذا قول كل ... لك حياتك ولنا حياتنا .. سأذهب ..

ولم انتشر خبر زيارة المحامي سامي إلى قرية جمالة وزيارة الجد يوسف خاصة انزعج الجد باكر الذي أعلن الحرب على زوج أخته وذريته منذ هرب زوج ابنته للغرب الأمريكي ، وقد علم جده باكر وشاكر بزيارته لجده خصيصا في القرية وبلدتهم القديمة من مارينا نفسها ، فطلب منه شاكر جد جود طلاق حفيدته مدعيا الغضب والنقمة .

ففعل سامي الطلب بكل سهولة ، ودون تردد ؛ كأنه كان ينتظر ذلك ، فلم تكن حياته مريحة معها ، وجود أيضا كانت تكرهه وتفضل الجلوس مع أصدقائها وصديقاتها من الجلوس معه وتزعم أنها تزوجته مكرهة لرغبة جدها بذلك . وترك الطفل لها على رغبتهم ، ولم يترج ، ولم يندم ؛ كأنه كان ينتظر هذه اللحظة بدا لهم ذلك ، فقالت أمه : أنت ما صدقت يا سامي !

فقال سامي وهو المثقف اليساري الشيوعي : ولماذا امرأة وبيت وطبيب؟! فالبغايا موجودات يا أم ناصر .. وفتيات الحانات يملأن الشوارع الراقية .. لما كبرت كرهتكم.. أسرة حاقدة ملوثة .. وهي قبلت الطلاق لما عرض .. وزعمت أنها تزوجتني مرغمة مع اني أنا قبلتها على مضض .. فهي سلمت نفسها لي قبل أن نتزوج يا سيدة مارينا ! بدل المرة مرات ، لم أتزوجها بكرا .

صاحت : يا الهي لم تتكلم بذلك!

رد قائلا : وبعد الشراب هل يبقى كلام ؟ وماذا ينتج عن مثل سهراتكم وحفلاتكم وتقليدكم للغرب إلا الانحلال والتهاون في مثل هذه اللقاءات .. عندما ترقصن شبه عاريات ماذا تردن منا ؟ وهل حقا هذه الحفلات بريئة ؟ مجرد غناء ورقص وطرب .. لا تتغابي وإلا كيف علقنا في هذه الأوحال والأهوال ؟

أما ميساء فتخرجت من كلية الآداب ، وعملت في الإذاعة الوطنية قسم الترجمة ، لم تكن حياتها الخاصة بأحسن من ناصر وسامي ، عاشت شبابها في بيئة فاسدة في نظرنا ، تعلمت السكر والرقص والخلاعة والتبرج والسفور والسهر والهوى واللهو ؛ لذلك لما دخلت الجامعة كان حولها شلة من الفتيات والشباب ممن هم على شاكلتها " الطيور على أشكالها تقع " هكذا قال القدماء لم تتغير البيئة عن البيت والأسرة ، أحبها أحدهم اسمه أدهم أوهمها أنها أول أنثى في حياته ، ووعدها بالزواج بعد الحب ، وكانت قبل الجامعة تعلقت بصداقة وقصة حب مع ابن خال لها ، وتركها وتعلق قلبه بصديقة لها ، وهجرتها ولم تأسف على حب فاشل ؛ لذلك ادعت أنها أحبت أدهم رفيق الكلية وصدقته بزعم تعلقه بها ، وما فعلت ذلك إلا لتكون مثل رفيقاتها لها صديق وحبيب ، ولكنه ملّها سريعا ، قبل انتهاء السنة الأولى بشهور ، فاقترب منها زميل لهما يعرف علاقتها بالطالب أدهم ، وأشفق على حبها الفاشل من أدهم ، واستمر حبهما المزعوم حتى السنة الأولى ، ثم أعجب بفتاة أخرى ، واعتذر لها عن الساعات الجميلة التي قضاها معها ، ولم تطل الفترة فترة الانتظار فجاء فارس ثالث ، فهي تقبلهم كما تقول من باب المكايدة والمغايظة ، وحتى لا تبقى حياتها الجامعية خالية من حبيب ورفيق ككثير من طالبات الكلية ، وفي السنة الثالثة حدثها طالب عن الزواج فقبلت ، وتزوجا فعلا رغم اعتراض العائلة في البداية ، ثم سكتوا فالمرء حر ، وولدت منه طفلا على غير رغبة من كليهما ومن أسرته وأسرتها ، وقبل التخرج حدث الطلاق المتوقع ، فلما عملت بالإذاعة عرض بعضهم الزواج عليها فرفضت ، ورفضت أي علاقة جنسية خارج الزواج التي يسمونها علاقات عابرة .

لم تترك الشراب والدخان ، ولا الاتصال بالذكور والإناث بزعم الصداقة والزملاء ، مشاكلها مع أمها لم تتوقف منذ أنهت الجامعة ..حتى فكرت بالحياة وحدها لترتاح من حفلات وسهرات أمها .

وكما كان سامي يتهم أمه بإفسادهم كرها وبغضا بأبيهم ، وزرعت فيهم عادات الغرب في الأكل والشرب والعلاقات الجنسية المحرمة باسم الحرية الفردية ، وتسمح لها بحضور حفلاتها ومجونها في شقتها أو عند أصدقاء العائلة .. منذ كانت فتاة صغيرة ومراهقة حتى رسخت هذه القبائح في وجدانها وكيانها ، ومن العادات القبيحة إظهار بدنها أمام الرجال والفتيان دون اهتمام لخلق وحياء.. الغناء والغنج والمغازلة حتى صارت أمور طبيعية بالنسبة لها ، تعقدت من فكرة الزواج والارتباط برجل واحد وأسرة وحمل ، كلما يطلبها رجل للزواج ترفض وأنها تعيش على راحتها ، وكان أهل طفلتها أخذوا الطفلة ، ولم يطمأنوا لتربيتها المستهترة ، ولسمعة أمها السيئة ، وقبلت ميساء الأمر بعد تردد ؛ ولكنها في وجدانها رأت المصلحة للبنت عند جدتها خوفا من تكتسب أخلاقها وفسادها وتهورها ، وكانت تقول لسامي : لماذا نعيش هكذا يا سامي شهوات سهرات؟ هل هذه حياة ؟ لماذا زرعت فينا انحلالها ؟ فهل هكذا تنتقم ممن هو أبونا ؟

قال ربما بحسرة : ربينا على ما هو أسوأ من عادات الغربيين.. لم نرب جيدا يا ميساء .. تركتنا نرى في أفعالنا أنها هي الحياة الجميلة .. المتع فحسب .. كنا نرى أمنا وما تقوم به هو الحياة .. اللذة المادية فحسب .. الحرية في كل شيء في البدن والأخلاق والطعام .. لماذا نحرم ونحلل ؟ ما يباع في الأسواق يؤكل .. نأكل الخنزير أو لا نأكله .. الخمر كالماء .. كانت تريدنا كذلك حتى لا نعترض على زلاتها وعشاقها .. كانت ترى بذلك انتقاما من الرجل الذي رماها عظاما كما تقول .. كانت ترى أن فعلها هو الصواب والمناسب للعصر .. ولما صرنا في الجامعات لم يتغير شيء.. وجدنا الكثير ممن رافقنا وصحبنا على شاكلتنا .. لم تختلف حياة ومجون الجامعة عن مجون البيت .. فلماذا نغار ونعقد الأمور ؟ ولماذا نفكر بالشيطان وشجرة آدم ؟وجدنا الكثير مثلنا ..كنا نرى أختنا نداء معقدة .. مريضة نفسية .. ومضللة مع أنها الصغيرة .. لم تنحرف وتسقط مثلنا كما تبين لنا اليوم .. رفضت السقوط في الخمرة والاختلاط .. لديها نزعة دينية بنت أبيها يقال .. كنا نقول دعوها بنت مريضة معقدة .. لم تهتم بأجواء

الإباحية في العائلة .. وها هي تدرس في كلية الشريعة على غير رغبة منا جميعا .. ولا تتكلم معنا أو غيرنا إلا في الدين والإيمان .. قال الله قال النبي .. فنسخر منها وسميناها جعد الصغيرة تمييزا عن والدنا .. وكثيرا سمعت أمك تقول لا أدري كيف تعلقت بالدين يا نداء ؟ لا أحد يصلي أو يصوم في البيت ؛ وربما كلنا يشك بوجود الله .

وتابع : فترد عليها بقوة وشجاعة الله الذي تشكين فيه حماني من خمركم من مجونكم وتبرجكم لمن هب ودب .. الله بغض لي سهراتكم ومجالسكم السيئة .. وهو الذي حبب إليّ قراءة الكتب الدينية .

فسكت ثواني كأنه يتكلم مع نداء : فكنا نسخر منها في البداية ..واليوم نكتشف أنها أفضلنا .. وأكثرنا سكينة وراحة .. وهمها وحلمها أن تتزوج رجلا صالحا متدينا .. وأعتقد بعد آخر حديث لي معها أنها وجدته .. فصديقتها فاطمة محيسن لها شقيق متدين؛ ربما يقترن بها بعد انتهاء الجامعة العام القادم .

قالت ميساء بضيق وربما غيرة : هي معقدة ! وليست الدنيا صلاة صوم عمرة .. لم أعجب يا سامي بخط سير حياتها ، ولا حياة هؤلاء المتدينين.. كانوا يزعجوننا في الجامعة والكليات المختلطة .. ولم أعجب بمجالسهم وحواراتهم اللباس اللباس يقولون لنا : أهذا لباس أحفاد الصحابة أحفاد عمر وأبي بكر؟ يريدون أن نعيش حياة أولئك المخلوقات .

قال منفسا من ضيقها : كل حر في حياته واختياره يا ميساء.. لكم دينكم ولي دين.. أنا محامي ورأيت وقرأت الكثير من القضايا .. وأنت كموظفة إذاعة تعرفين الرجال شبانا وكهولا .. فأولئك في رأيي حياتهم أهدأ من حياتنا .. ولا يعني ذلك أنهم أفضل منا .. لكن عيش نداء في أسرة مفككة مثل أسرتنا تعد معجزة .. لا زنا ، لا شراب ،لا قمار ، لا سفور وتعري تعد آية من آيات الله .. بدون مكابرة يا ميساء .. لا تقولي إننا سعداء ؛ إنما نحن عائشين.. أنت نفسك تركت ابنتك خشية عليها من مثل حياتنا .. وأنا طلقت امرأتي جود والطفل حماية له .. لم أحب أن يعيش مع أمي وصديقاتها الفاجرات.. فنجاة نداء من حياة ساخرة مستهترة في

نظري أمر عظيم .. علمنا أن أجدادنا باكرا وشاكرا خرجوا من القرية لفسادهم وتهاونهم في علاقة الرجال والنساء وذوبانهم في الترف والاستهتار والخمر .. الدولة فيها من أهل الريف وزراء ونواب ومحافظين .. الفرص هنا للمناصب أكثر .. لا أدري اذا كان هذا صحيحا .. فكانت المدينة أستر وخير لهم من القرية التي ما زالت محافظة إلى حد كبير.. وتدين الناس في القرى والريف بين .. ويستحي الشخص أن يفعل شيئا تعاب عليه كل العائلة .. فالتدين في القرى أمر مهم ولو نفاقا .

تنهدت ميساء وقالت كأنها تأسف على حالها : تأثرنا بدعاة حق المرأة .. بتقليد بنات أوروبا الغربية والعيش مع رجل بدون زواج .. وكلهم خوّان تضحك في وجهه صديقتك يغدر بها ، ويذهب إليها .. وينسى الوعود والكلام المعسول مما تعرفه يا سامي .. نحن في الهوا سوا .. كل كان يزعم أنك الحب الأول والأخير .

فقال مؤكدا المعنى : وحتى البنات يا ميساء تترك الزميل والرفيق بحجج واهية .. كلمة خرجت غيرة أو خطأ تنهي علاقة شهور وتفسدها.

ـ هل حقا ستذهب للقرية لتزور جدك يوسف ؟

ـ أليس هو الذي أرسل الأموال لندرس في الجامعات ؟!

قالت : لا ننكر هذا ؛ ولكنها أموال أبينا .. ليس بيننا زيارات منذ هاجر ما يسمى والدنا .

قال موضحا : كانت الأموال تصل لجدنا ؛ لينفق علينا .. ونتعلم على نفقة الوالد فجدنا باكر لا دخل له ولا حتى أمك .. فقد علمت من بعض أبناء أعمامنا الذين نلتقي بهم صدفة فيحدثوننا عن النفقة .. وعلمت منهم أن السيد الأب يعيش في بحبوبة من العيش .. ولنا أخوة هناك .. فله شركات وأعمال هناك .

قالت : أسمع مثلك .. فالأموال لابد أنها تأتي منه يا سامي .. سنرى ماذا سينتج عن زيارتك المرفوضة من قبل أمي التي طلبت مني إقناعك بعدم التهور والزيارة ؟

قال : سيرافقني قريب لأبي إلى القرية كما رتبت .. زميل في المهنة تعارفنا في احدى المحاكم

وتبين لنا أننا أقرباء وأبناء بلدة واحدة .. ولما علم ذلك الجد يوسف حثه على الإتيان بي للتعرف عليّ بعد ما كبرت .. فنحن منذ هرب أبي للأرجنتين أبعدونا عنهم .. وقفت أمنا ضد أي فكرة للذهاب والالتقاء بهم .. منعنا من الذهاب للقرية يا ميساء .. ممنوع التعرف على أعمامنا وأبناءهم .

ـ حق هذا ! أمر شائن وسيء يا سامي .. الغريب نتعرف عليه.. ما دخلنا نحن في نزاعهم !

قال بقرف وضجر : هذا البغض والانتقام من الضعفاء.. عادات بغيضة مقرفة.

****

رغم الفساد والانحلال في بيت مارينا باكر كانت نداء صغرى بنات نزيه تحب التدين منذ نعومة أظفارها متأثرة ببعض معلمات المدرسة الابتدائية ثم الثانوية ، كنا يتواصين على رعايتها فكانت ترى أن ما يحدث في البيت من سهر وخمر واختلاط وتبرج أمرا سيئا وقبيحا وانحرافا عن الفطرة التي جبل عليها الإنسان وهي الطهارة كما جاء في الحديث النبوي عشرة من الفطرة ، لذلك كشفت بعضه لمعلمة الدين ، فاهتمت برعايتها ومساعدتها ودعمها نفسيا ومعنويا ، واتخذتها صديقة خاصة ، وتتصل بها هاتفيا لصلاة الفجر ، وتدعوها لحضور ندوات دينية ، وكانت معلمتها في الثانوية قدوة حسنة لها بتوصية من مربية المرحلة الأولى في التعليم ، وقد تغير نظام التعليم في البلاد ، سنوات الدراسة مرحلة أولى ست سنوات تبدأ من السنة السادسة حتى السنة الثانية عشرة ، ثم ثلاث سنوات مرحلة متوسطة إعدادية ، ومرحلة ثانوية ثلاثة أعوام ومنها للجامعة ، وتشجعها المعلمة على الصلاة ، وترك السفور والتبرج، وتدفعها للصبر والتحمل حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا، وأن الفرج قريب من المحسنين ، والفتاة تريد ذلك وترغب فيه ، الطهارة والصلاح ، فلم تنغمس بما يجري في البيت من موبقات واستهتار ، ولم تعر ذلك السفه اهتماما توفيقا وفضلا من الله ، وقد حاولت وسعت أمها الإيقاع بها ، وجرها لحماقاتها وفجورها ؛ لكن الله حفظها ، واستجاب دعاءها ، ودعاء معلمتها الخاصة ، لم تسقط في براثن الإباحية والمجون ؛ بل كانت تذهب سرا إلى قرية أبيها

جمالة ، وتلتقي بجدها وأعمامها ، وتساعدها في ذلك قريبة لها من المدينة ابنة عمها إبراهيم يوسف ، وتعرفت على جدها وأعمامها واهتموا بها خفية . وكان الجد يدفع لها المال لتشتري الكتب الدينية والثياب الشرعية الحشمة ، وكانت تكتب رسائل لأبيها خفية عن أمها وتبعث له صورا لها ، ويرسل لها الهدايا الخاصة ، ولم تر رغبة أبيها بالمزيد من الذرية معيبا ؛ بل هو الأمر الشرعي ومباحا وغاية من غايات الزواج كما فهمت من معلمتها الطيبة .

وكان الأب المهاجر يوصي والده بالإحسان إليها ويدعمها بما تريد ، ويرسل له المال المناسب . وكانت نداء تقدم النصائح السريعة لأشقائها كلما سنحت الفرصة والمقام ، وكانت ميساء تنهرها مرات بلطف ومرات بحدة عن تقديم أي نصح لها ودعوتها للصلاة والحشمة ، وكانت تسخر مما تلبس هي ومن على شاكلتها من بنات الجامعة والشارع. دخلت كلية الشريعة رغم اعتراض البعض ؛ ولكن جدها يوسف شجعها على ذلك الاختيار ، وتكفل بكل مصاريفها ورسومها وثيابها ، والحق أن والدها نزيه هو الذي تكفل برسوم الجامعة ومصاريفها كما أنفق على ميساء وسامي ، وهذا أكده الجد يوسف ، وأنه كان يرسل المال لعم أمها شاكر حسب الوصول والأصول . كانت الفتاة تعيش في البيت في شبه عزلة ، شغلها الدراسة والقراءة ، ولم تقم يوما بدعوة زميلة جامعة أو مسجد لبيتها .

كانت فاطمة محيسن صديقتها الأقرب إلى قلبها وروحها في الكلية تعلم ظروفها البيتية ، وتدعوها كثيرا لبيتها للطعام للدراسة للنزهات للندوات والمحاضرات حتى أن فاطمة همست في أذنها أن شقيقها صديق يرغب بخطبتها بعد تخرجها . وفعلا حدث ما همست به فاطمة ، فلما تخرجت من كلية الشريعة خلال شهور أعلنت خطبتها ، الشاب الصيدلي صديق محيسن ونداء نزيه ، وقد وافق عليه جدها نزيه وأعمامها قبل أمهم وإخوتها.

وعملت في قطاع التعليم والتدريس متأثرة بمعلمتها في الثانوية السيدة الفاضلة أمية محمود معلمة التربية الدينية ، كما حلمت ورغبت ، وكان زوجها صديق قد تخرج من كلية الصحة والطب كصيدلي ، وكان يكبرها بسنوات قليلة ، وكانت تحبه كما أحبت شقيقته فاطمة

وأسرتها ، والشاب رغب بها قرينة منذ وقعت عيناه عليها في رفقة فاطمة .

كانت علاقتها الاجتماعية بأمها وأختها وأخويها بعد الزواج ضعيفة ، وهم ربما ما صدقوا وخلصوا منها فكانت تزعج ضمائرهم ، وعلاقتها ببيت جدها يوسف أفضل وأقوى منذ مدت الجسور الرحمية بينهم ، ويدعونها وزوجها للقرية والمشاركة في مناسباتهم وأفراحهم وأعيادهم ويدعونها في شهر الصيام للإفطار هي وزوجها وحموها ؛ لأنه شهر تكثر فيه دعوات الإفطار ، وكانت تحبهم كثيرا وتفخر بهم . وسعد الجد يوسف بزواجها من صديق محيسن ، وأهداه سيارة صغيرة وبعد تردد قبلها ، وقال: أرى جدك يوسف يحبك حبا جما.

فقصت عليه فصلا من حياة أسرتها ، وأنها كانت تزوره خفية عن أمها ووالدها الحاقد على جدها وذريته ، فهم يبغضون أسرة جدها أشد الحقد والبغض لتركه وهجره أمها وهجرته للأرجنتين بعد أن رفضوا أن يتزوج عليها ولرغبته بالمزيد من الخلفة والبنين .

تعلمت القيادة للسيارة ، وقبلت عرض وهدية زوجها السيارة لما حصلت على الرخصة ، اشترى لها سيارة مما أغضب الجد يوسف من تصرفه .

فقال له: يا ولدي إن زوجتك درة في العائلة ، ونحن الله أعطانا الكثير رغم حياتنا في القرية الواسعة ، ووالدها صاحب أموال وشركات مع أولاد إخوتي هناك.. وله زوجة وأخوة لنداء .. وقد ولدت زوجة أبيها أربعة أخوة .. وهو سعيد بأخبارها .. وأخبرني أنها تكتب له من أيام مدرستها الثانوية ، ويتحدث معها في الهاتف عندما كانت تزورنا أو من بيت عمها إبراهيم .. فلإبراهيم بنت من جيلها .. وهما رفيقتان .. وقد يعود أبوها نهائيا للبلد .. وسيترك إدارة العمل لزوجته وابنه الأكبر جعفر .. وأولاد أخي يعقوب لهم زمن بعيد هناك .. الله وفقهم خير توفيق .. وقد جاء بضع مرات بعد وفاة أمه.. وقد رأته نداء في كل زيارة .. ولما مات أخي نائل أتى أيضا ؛ لكنه لا يمكث أياما كثيرة خشية أن يؤذيه أهل زوجته أم نداء .. زوجته أم جعفر لا ترغب بالمجيء معه .. فهي غير مقتنعة ببلادنا .. هي من عائلة قديمة هاجرت غربا.. هي من أصول شامية هاجر أهلها قبل قرن ونصف ، فلا تعرف هذه الدنيا ..

فلا تأخذ يا ولدي الأمور بحساسية .. فما نجمعه سيبقى في الدنيا ، لن يذهب معنا للمدافن .. ونداء كما تعلم هي خير أبناء نزيه في هذا البلد .. وهي بنت رضية وطيبة .. ونحن لسنا بيننا وبين أولاد نزيه معاداة أو حرب .. هم اختاروا البقاء في حضن أخوالهم ؛ بل لما زارني سامي نزيه قبل سنوات غضبوا منه.. وطلقوا ابنتهم منه .. وأحيانا يحتاج لبعض المال فيتصل بي.. وأساعده طبعا دون علم أمه .. فزوجتي المرحومة أختهم .. وهي عمة حماتك .. ولدي اضطر للهرب منهم يا صديق .. ووجد السلامة الخروج بدل الصراع .. وهم أصحاب نفوذ في المدينة .



لم تكن تربية مارينا بين والديها تربية إسلامية في مجتمع مسلم ، كانت تربيتها متأثرة بتربية الغرب ومحاكاة العادات والتقاليد الأجنبية ، المشاكلة في الطعام والشراب وطريقة الأكل والتعري شبه الكامل ، ولبس موديلات حديثة ، استخدام المكياج في كل وقت ، وأمام الأب والعم والأخ والأخت والأجنبي ، الاختلاط بجميع الأصدقاء شبانا وفتيات ، مشاركتهم في حفلاتهم في الرقص والغناء ، والمزح بالأشياء والألفاظ البذيئة دون أدب أو حياء ، وسكر حتى الثمالة ولعب القمار . تقام الحفلات المختلطة في البيوت والنوادي العائلية ، تعرفت على نزيه عندما جاء المدينة ليدرس في الجامعة ، فأكثر من التردد على بيت خاله باكر وشاكر وخالته هيام وسلمى ، واحتك بهم ، وهم استلطفوه دون أخيه الذي سبقه في الدراسة في المدينة ودون الذين جاءوا من بعده .

أعجب الشاب القروي بمارينا من أول زيارة ، وكان معجبا بأخواله قبل الجامعة وقبل السكن في المدينة ، وهي كذلك أعجبت به ، ورأته شابا قويا ووسيما ، وحلمت به زوجا مناسبا عند الزواج. ولم تحدث بينهم قصة غرام وعشق ، وكانا يتحدثون عن الحشمة والسفور والمقارنة بين أهل المدينة وأهل الريف والقرى ، وطباع وعادات القرية والمدينة العصرية ، ورأت أن الإنسان يتغير مع تقدم الزمن والحياة في بيئة جديدة ؛ كما حدث مع أبيها وعمها ، وأن الشاب مع الوقت سيتطور ويتحدث ويتعصرن ، كانت الفتاة في نفس سنه تصغره بشهور ، وتدرس في نفس الجامعة كما سبق وفصلنا ، والإنسان في حياة منفتحة قد يزداد انحلالا وتقبلا لحياتهم الاجتماعية والثقافية وتنحصر تقاليد القرية مع الوقت .

وكانت تخصه بدعوات ومشاوير كابن عمة ، وبدفع وتشجيع من أمها ، وصمت من الأب ، فاعتقدت أنهم راضون عن علاقتها وانفتاحها على نزيه، وهو الآخر فتن بها وبلطفها وحسنها وقبولها الجلوس والخروج معه ، وهو تمناها زوجة في يوم ما .. مجرد تمني، وشجعته أمه على الارتباط بها ؛ لعل خاله يقبله قرينا لها .

فهو يعلم يقينا أن والده لا يقبل بها وهي على هذه الهيئة السافرة ، سيقان مكشوفة ، نصف أفخاذ عارية ، قص شعر مثل الشباب ، أما هو فوجهة نظره أنه كان يرى أنها قد تتغير عند الزواج ككثير من الفتيات .. وتقل حركات لفت الذكور .

وكان باكر وزوجته يرونه العريس المناسب لها ، فأمه أخت باكر ، وشاكر عمها يراه مثلهم ، والفتاة لم تظهر الامتناع والنفور من زواجها منه ، كلما تشير أمها لذلك ، بل بشت في وجه وشجعته ، فهو في نظرها ونظرهم شخص بسيط طيب قادم من الريف ، وكان الشاب يومها يرى أخواله مهمين في مستقبله وعمله ، فهم سادة يجلسون مع الوزراء والحكومة ، وخاله شاكر كان وزير الجمارك ، وتذكر أن أهل القرية عملوا احتفالا كبيرا لما صدر قرار وزارته ، وظهر اسم القرية على خارطة البلد في الإعلام والصحف كبلدة الوزير الأولى ، وأضيفت إليه صفات كثيرة ، وفوق المنصب السياسي هو مليونير في مقاييس تلك الفترة من الزمن ، وخاله باكر موظف كبير في وزارة الاقتصاد والمال ، وتحدث والدها عن رغبته بتزويجه مارينا ، وأن لها ميلا نحوه ، ولم يعترض الفكرة، وشاكر خاله وعده بذلك بعد الجامعة . فلما تخرج من كليته يحمل بكالوريوس تجارة واقتصاد ، تم توظيفه في الدائرة المالية ؛ ليكون مسؤولا في الكبر كخاله ، كان يرى السعادة والطموح بقربهم ، والسعد بجوارهم وما هي إلا سنوات ويصبح رجلا مهما في الوزارة . واستقر في المدينة نتيجة العمل الوظيفي في الحكومة ، وأحب والده تزويجه من بنت صديقه قديس احمد ، واستطاع شاكر إقناعه بالزواج من ابنة أخيه مارينا ، وأن ذلك من مصلحته ، ومن رغبته بها ، وأن مستقبله الكبير مضمون ، ورضي يوسف من أجل خاطر أم إبراهيم زوجته التي كانت تميل إلى ذلك وقبل تدخل شاكر وضغطه.

وحصل الزواج كما ذكرنا في أول الحكاية ، وبعد أن وضعت مارينا ابنتها نداء بشهور أصيبت بداء هرموني كما تبين يسبب نزيفا في الرحم والمهبل، وأصبح اللقاء الزوجي يشكل عبئا وإرهاقا له ولها وللأسرة ، وتضطر لزيارة الطبيب عند كل جماع ولقاء ، مما أزعج نزيه والأسرة وتوقف الحمل والحبل ، فلم تعد قادرة على الإنجاب والمعاشرة الشرعية ، وأصبح النزف

والدم حاجزا عن الحياة الجنسية الطبيعية، والعلاجات غير موفقة ، وهو من محبي الإكثار من الذرية ، ولا يقرب الزنا والفواحش ، ولم يعرفهما . ورغب نزيه بعد فشل العلاج بالزواج من أنثى أخرى ، وطلب منها أن تختارها هي بنفسها ، وفكرة التعدد غير مقبولة في وسطهم في وسط أخواله وخالاته ، الفكرة مرفوضة أساسا دون تفكير ودون تردد ، ووجد أن الطلاق مرفوض أيضا ، فالأحسن عندهم معاشرة البغايا وبائعات الهوى أو من بنات المعارف الساقطات أو بنات الحانات ، وهو لا يرتاح لهذا الخيار للقضاء على الرغبة والشهوة .

هو لم يقبل فكرة النوم مع امرأة متزوجة أو مومس ، والنوم مع إحداهن بالحرام والزنا ، وقد استهجن بشدة وقبح هذا التفكير المنافي للفطرة الطيبة ، وأنها ستغض الطرف عن مثل هكذا علاقات ، دهش من شدة تأثرهم بالغرب حتى في الجماع من مومس وبنت داعرة ، نزيه المتدين يقع في الزنا ، ورغم قضاء هذه السنوات معهم لم يضعف أمام انحلالاهم وسكرهم ، ولم يستسغ فكرة اللهو والسهر الممارس في حياة أخواله وذريتهم ، فكان يهرب منها ، وقد سكت عن سلوك زوجته في بعض المرات تجنبا للصراع معها ومع أخواله ، وكان آملا بإصلاح زوجته في وقت ما ، كانوا لا يعتبرون الزنا والفاحشة جرما ما دام كلا الطرفين موافق على هذا الفعل الفاحش ، فهذا مباح في قانونهم الأرضي ، المهم رضا الطرفين .

أمام الواقع المر أكثر من الذهاب للبلدة ، هجر البيت ورحل للقرية ، التقى في إحدى الزيارات بابن عم له هاجر للأرجنتين قديما ، فحدثه عن همه وغمه ، فشجعه طلال يعقوب القادم في زيارة للقرية بالذهاب والسفر معه ، وترك البلد ، وأخذ بكيل المدح للهجرة والغربة والحياة في تلك الديار من العالم ، وأن أعداد العرب فيها في ازدياد ، وأنك تجد شوارع كلها من الجاليات العربية السوري اللبناني الأردني العراقي عرب شمال أفريقيا ، وتجد فيها مشروبات عربية وكل أصناف الطعام العربي واللباس العربي ، فما كاد طلال يسكت عن ذكر محاسن تلك البلاد والعباد حتى كان نزيه مقتنعا ، متقبلا الفكرة ، وأن الهجرة هي الحل السليم والصواب ، ورتبا لها سرا خشية أن يعرقل أخواله سفره وهجرته.

قدم استقالته من الدائرة زاعما الحياة في القرية تخلصا من المشاكل الزوجية، وظنت مارينا أنه يسعى للزواج في القرية ، وكان له الهرب دون علمهم.

فجن باكر وشاكر ومارينا لما عرفوا بفراره إلى الغرب ، وبعد حين نسيت الزوج والشرف ، وأخذت تزيد من تبرجها وعريها وخروجها وسكرها وسفرها ، واللقاء بالرجال وسيدات المجتمع، وتقبل هذا وذاك، ويلمسها هذا وذاك دون حياء وخجل ، وحتى أنها سمحت لنفسها باتخاذ العشاق ؛ كلما سمحت صحتها الجنسية بذلك ، لا رقيب ولا حسيب ، أب لا يهتم ، وكذلك أم ، أبناء صغار فلا أحد يسأل ويعترض ، الطلاق لم يحصل لم تأت وثيقة الطلاق ، فتزوج هناك بدون اهتمام ، فلما تحركها الرغبة والغلمة تقبل أي عشيق وزان ، فصار الزنا أمرا طبيعيا في رأيها وحياتها ؛ بل كانت تترك أولادها وبيتها أياما وليال لتعيش مع الزناة في أكواخهم ونزهاتهم ورحلاتهم وشاليهاتهم ، وقيل إنها سقطت في وحل الرذيلة وهي في الثانوية قبل أن تلتقي بنزيه وتتعرف عليه ، لكن بعد هجرة نزيه لها اشتهرت بذلك الفحش ، فتسكر وتزني وتقامر ، ولا أحد يعترض على هذا الانفلات حتى أولادها علمتهم على تلك الأفعال الدنيئة وأوقعتهم في براثن الفسق واللذة المحرمة إلا نداء نجت من الانحلال الخلقي الذي عم البيت ، فدخل الثلاثة عالمها الفاسد القبيح باسم الحرية والديمقراطية ، وهي لم تكترث بهم وبنقدهم وتعليقاتهم ولهم ، حياتهم اللا مبالاة ؛ فاذا تحدث أحدهم واحتج تصرخ "إنها حرة في حياتها وشهواتها" فيلزمون الصمت ؛ فهم مثلها في الفاحشة والعلاقات الخبيثة فهم أتباع الهوى والشيطان ؛ فالذي يرضونه لأنفسهم عليهم أن يرضوه لأمهم ولأختهم ، استطاعت بفسقها أن توصلهم للهاوية وحب الشهوات والمجون ، فالكل في الهوا سوا ، وكانت تزعم أنها تنتقم من أبيهم عندما تكلمها أمها بالتخفيف من تهورها فبعض الشرف ، وأن أولادها كبروا.

لم ينجُ من نقمتها وغلها وحقدها إلا نداء كما علمنا ، فقد حفظها الباري في علاه ، ويسر لها من يوجهها التوجيه السليم ، فكانت القراءة ورعايتها من بعض معلماتها المخلصات في

النصح والرعاية والإرشاد أن يوصلنها سفينة النجاة "احفظ الله يحفظك"

ومضت السنون بخيرها وشرها فبدت لهم في نظرهم وفكرهم أنها لم تكن أما صالحة ؛ إنها تكرههم وتحقد عليهم ؛ فلم تظهر حبها وحنانها وعطفها لهم أو تحس بهم حتى رأينا أن ناصرا يأخذ بضربها وصفعها ودفعها وشتمها عند كل نزاع وحوار حاد ، وخاصة بعدما تعرض لحادث ، وتعرض فيه لشلل ، وعجز عن العمل ، كان عائدا من حفلة سكر وعربدة ، فوقع الحادث بعد خروجهم من بيت أحد الأصدقاء الماجنين .

فيقول ببغض : أنت سبب تعليمنا الشراب والسكر لأقصى حد.. ألم تشبعي من الفواحش والرجال يا ... يا ... .

عشرات من الأوصاف يطلقها في وجهها : لقد عجّزت.. ما زلت تزعمين أنك شابة بهذا التبرج والمساحيق والصالونات .

فتعود لكلمة الحرية وحقها في الاستماع بالحياة قبل الفناء ، وأن الأدوية تعيد لها قوة الشباب، ويبقى حولها الأصدقاء الذكور والإناث .

فيقول لها من غير أدب وحياء وبر أم : الذين ينامون معك كلهم عواجيز مثلك يا مارينا .. هل من شاب يغامر ويقضي شهوته في حضنك ؟ وضحك وتابع سخريته وتحقيره : لا أعتقد .. أنت أحقر أم في التاريخ القديم والحديث .

ويعود للشتم والسب فيصفها بأقبح الأوصاف ؛ كأنهما يجلسان في حانة من حانات السكارى وهي تصاب بالسرور مما توصف به لا تحتج ولا تتأفف ، وهو لم يشعر بأنه يخاطب أمه للحظة كان كأنه يخاطب فتاة في ملهى أو مرقص أو شارع بنات الهوى .

ويقول : أنت مجرمة وملعونة .. لقد نجا منك ذلك الجبان الهارب .. وهل ذاك الهارب يهمه فعلك فينا ؟.. وما تفعلين بروحك وشهوتك ؟..والذين يضاجعونك مجرمين مثلك .. يزعمون أن لهم قدرة وطاقة على الزنا، وهم يترنحون في مشيتهم وحركتهم .. هم يأتونك طمعا بالشراب والطعام والمال . هكذا كانت مجالسهم لما تعرض للحادث .

سامي ترك الزواج ، ولم يتصالح مع قريبته جود بنت ابن خاله شاكر ، وقال لأمه : عندما اشتاق للنساء فها هي نوادينا فيها من هي مستعدة لقضاء ليلة في حضني .. وهناك نساء ببضع دراهم يؤدين الغرض وانتهى الأمر .. لا تقلقي عليّ يا أم ناصر

اعترضت وقالت بهمس : والأمراض الخبيثة !

قال بهدوء وعدم اكتراث : لم يعد للحياة قيمة .. وهل الزوجة شريفة يا شريفة ؟ ولماذا أنت لا تخشين الأمراض؟!

قالت بثقة : أنا أخشاها ، ودائما أقوم بالتحاليل والفحوص.

تنهد بأسف : الوحيدة التي نجت من قبحك وتربيتك الإباحية نداء .. لا أدري فعلا كيف نجت وفلتت من تربيتك الحسنة ؟وضحك .

سامي لا يخاطبها بأمي منذ عهد بعيد حذفها من قاموسه ، يناديها بأم ناصر أو مارينا ، وهي لم تعد تهتم بهذه الصفة العظيمة " الأم" ، وعندما يراها مقبلة من صالون التبرج والمكياج يصرخ : أنت مثل القردة ؛ ربما القردة أجمل منها كما يقول ناصر ! .. كيف ينظر إليك السفلة من الرجال؟! ألا تزهقون وتملون ؟!

قالت متحدية احتقارهم : مهما وصفتم وسخرتم ما زلت حية . . ولي رجالي وعشاقي .. ولن أغير طباعي ؛ فكما أنتم أحرار فأنا حرة .

قال بغيظ خفي : نعم ، أنت حرة.. المشكلة يا حرة يتغزلون بك أمامنا .. كأننا حشرات .. أليست عندك مشاعر وقلب ؟ كم أبغضك أيتها الحشرة ؟

ذكرنا أن السيد نزيها ترك البلاد تحت الظروف التي أحاطت به ورغبته بالزواج من جديد ، ولما قابل ابن عمه طلال يعقوب وشكى له حاله ، ولما سمع طلال مشكلته شجعه على الهرب والهجرة والخلاص من مشاكله ونزاعه مع أخواله المتنفذين في الدولة ، ولما وصل تلك الديار الكبيرة في الغرب الأمريكي ، دبر له ابن عمه الزواج من فتاة عربية والدها من أصول سورية ، فالسوريون وأهل الشام وصلوا الأرجنتين والبرازيل في القرن الماضي ١٨٧٦ ، يعيشون في تلك البلاد من مائة سنة . وكان العرب يشكلون عددا لا بأس به من الناس في تلك البلاد الواسعة والكبيرة ، حتى أنك اليوم قد تجد أحياء كلها من الجاليات العربية ، وأغلبهم من الشوام واللبنانيين والفلسطينيين خاصة بعد نكبة فلسطين المشهورة وطرد الناس من أوطانهم ١٩٤٨ . الحروب الشرسة تسبب الهرب واللجوء ، كانت الفتاة متخرجة من الجامعة وتعمل مع والدها في مصنع اسماك ، ويملك مطعما مهما للعرب لطهي وشوي الأسماك المختلفة الألوان والأحجام والأشكال. اشتغل قبل ذلك مع ابن عمه فترة ، ثم مع والد زوجته وإخوتها فترة أخرى ، ثم أسس شركة مالية لتبادل العملة صرافة ، والمشروع يولد آخر حتى ملك مكتب محاسبة خاص . مع كل هذا الفضل والثروة والشركات والتجارة كان محبا للعودة لبلده والموت فيه ؛ فلذلك لما تسلم ابنه جعفر الابن الكبير من امرأته العربية ازداد تفكيره بالعودة للقرية بعد أكثر من سبع وعشرين سنة من الزمن ، واقترب من الستين من العمر حسم أمر العودة لجهالة مسقط رأسه ، والزوجة لم تقبل مغادرة البلاد ، وفضلت البقاء حيث ولدت ، وعاشت كل هذه السنين ؛ وكذلك فضل الأبناء الأربعة منها البقاء ، ورفضوا العودة لديار العرب المجهولة بالنسبة ؛ وحيث الصراعات التي لا تنتهي وتنتشر أخبارها في كل العالم ، وكان آخرها سقوط بغداد في يد دول التحالف الغربي ، وإنهاء حكم البعث فيها .

كما خرج وحيدا عاد وحيدا وسعيدا ، وكان والده وإخوته أقاموا وشيدوا له قصرا صغيرا من سنوات مضت ؛ لأنه كان يتحدث عن العودة منذ وقت قديم ، فلما كبر جعفر وتسلم

الشركات والأشغال حسم أمره ، وغادر الديار للوطن .

فرح بعودته لجمالة محبوه ، والده الشيخ يوسف وإخوته وأخواته ، ورحبوا باستقراره بينهم ، حتى أن بعض صحف البلاد ذكرت عودته ، ورغبته بالاستقرار بين ذويه باقي عمره ، وهو رجل أعمال ثري قادم من وراء البحار ، فقد قام بالمشاركة مع إخوته بإنشاء وإقامة بعض المشاريع المهمة في المدينة سلام قبل العودة . ولما استقر في البلاد قام بتطليق زوجته رسميا ، وأشهر طلاقه من مارينا حسب القانون ، ونشرت بعض الصحف هذا الخبر ، وتلقت المرأة وإخوتها ووالدها وعمها الكبير شاكر الأمر بالصمت ، فهي كانت تعتبر بحكم المطلقة منذ هرب كما يقولون ، ولم يجد جديد على الواقع المعاش بين جميع الأطراف .

وكانت الفكرة أن يتزوج من جديد مرة ثالثة ؛ ليستقر نهائيا في القرية وربوع الوطن ، وقام بالبدء بالتخطيط لبضعة مشاريع في القرية لإشغال وقته فيها ، إقامة مدرسة في القرية مدرسة خاصة ؛ كما فعل في الأرجنتين حيث أنشأ معهدا لتدريس اللغة العربية ، وخطط لأنشاء مركز طبي في الزمن القريب ؛ ليخدم القرية والناس والبلدات المجاورة .. هذا ما بدأ يرسم له سعى أخواله عن طريق وسيط بعد أن هدأت زوبعة الطلاق الرسمي أن يعيد مارينا إلى ذمته من أجل خاطر أولاده ، ويبقى الحال كما كان أثناء الهجرة كل في بلده .. هذا ما نقله الشفيع له فقال للوسيط متعجبا من شفاعته ورغبتهم : لنا عمر ؛ كأننا مطلقون .. أنا سأتزوج ثالثة .. وهم لا يرضون بأن تكون ابنتهم ضرة .. امرأتي هناك لم اطلقها.. ما زالت على ذمتي ؛ ولكنها أبت أن ترجع معي ، وكذلك أولادي منها .. ولا داعي للمشاكل .. ولي أشهر هنا ، ولم يطل عليّ ولد منهم يسلم عليّ باستثناء قرة عيني نداء كما تخبر.. فأي خاطر يهمهم.. ولا أرغب بأي علاقة مع أولاد أخوالي وأخوالي وخالاتي .. وسمعة مارينا في الحضيض .. وتزكم الأنوف ، حتى وأنا في تلك البلاد وصلتني أخبار طيشها وفسادها ، وأنها أفسدت ذريتي بزعم الانتقام مني إلا نداء الابنة الصالحة .. فأي خاطر يحتاجونه .. فالطلاق حصل هناك ؛ وإنما أعلنته هنا وشهرته ..ولا أعتقد أنها ترغب فيّ ؛ إنما هذه أفكار شاكر وباكر .

فبعد هذه الوساطة بأسابيع معدودة تعرض الرجل لمحاولة قتل في القرية من قبل مجهولين بعد خروجه من المسجد المجاور لبيته وقصره الصغير ، أغلق الموظف بوابة بيت الله ، وقف أمام المسجد بعد انتهاء صلاة الفجر ، وقف مع شابين كان قد رتب لعملهما معه في وقت سابق ، كانوا يتحدثون عن المركز الطبي الخاص ، وما تم إنجازه من بناء المدرسة والمركز ، وبينما هما يتكلمان أطلقت عليهم النار فأصابت أحد الشابين ، فصرخ ووقع أرضا ، وكانت سيارة تنطلق مسرعة لم يتمكنا من حفظ رقمها .

وعجزت الشرطة والأمن من معرفة الجانيين مطلق النار والسائق ، ومات الشاب قبل الوصول للمشفى ؛ لتأخر وصول سيارة الإسعاف لمكان الحادث ، وتحول المكان لمسرح جريمة .

وقال نزيه لمن اجتمع حوله : أعتقد أنني المقصود بالجريمة وليس المهندس . وهكذا ترجح لدى الشرطة ، فلم تستطع الشرطة اتهام أهل الحي أو البلدة ، وزعمت في النهاية أن الفاعل من خارج الحي ؛ وربما القرية كلها ، وأثار نزيه الريب والاشتباه حول أخواله وزوجته المطلقة. وترك الحادث الرهيب صدمة كبيرة في البلدة الريفية ، فجرائم القتل من الأمور النادرة فيها ، والكل اعتقد أن المقصود نزيه . وفقدت البلدة شابا مهندسا كان مشرفا على البناء الخاص لنزيه ، وترجح لدى نزيه وأبيه وأهله أن أعداء نزيه زوجته وأهلها هم وراء الحادث البشع ؛ لكن لماذا القتل اليوم ؟! فهو مفارقهم من عهد بعيد ، ومدينة سلام تأثرت بهذا الحادث الكبير وكتبت الصحف عن تعرض العائد من الغربة إلى محاولة اغتيال، ولم يعرف الدافع ولم يعلم الجناة لحتى اليوم .

فقلل نزيه نتيجة لهذا الإجرام السافر من الخروج للمسجد على الفجر والعشاء خشية تكرار الجريمة واستغلال العتمة وضعف الإنارة العامة ، كان نزيه يقول لنفسه ويجزم علنا أن الفاعل من طرف زوجته ومن والدها وعمها ، فهم أصحاب النفوذ والقوة ، فكلاهما اعتلى منصبا في الإدارة للدولة ؛ ولكن الاتهام بدون دليل لا يساوي فلسا عند القضاء والعدالة ،

فسلم المتابعة للمدرسة والعيادة لوالده الشيخ وإخوته من زوجة أبيه أم نزار ، ورتب مع والده فقط للاختفاء من جديد متوقعا أن يعاود المجرمون الكرة بعد هدوء ونوم أعين الحكومة ، وسيعود حتما بعد انكشاف الغمة .. هذا ما رآه حلا عاجلا ومؤقتا في الزمن الحاضر .

وكان قد رتب مع ابنه جعفر في بيونس آيرس أن يتحدث مع محقق أرجنتيني سوري الجذر حول قضيته استعان به في قضايا في الأرجنتين ، وأعطاه الرجل عنوان صديق له في دمشق عمل معه في الأرجنتين قبل أن يعود للشام ويستقر مثله بعد غربة عمل فيها مع شرطة ولاية العاصمة . وافق الوالد على اختفائه سرا حتى تظهر أشياء جديدة في الأفق ؛ على نظرية أن المجرم لا يقبل الفشل ، وقد وجد الفاعل كما يظنان من يغطي عليه في الجريمة التي حصلت وذهب ضحيتها شاب صغير يعمل مهندسا مدنيا ، وأخبره أنه سيكتب له من منفاه الجديد ومخبأه ، وطلب من أبيه أن يبدو الأمر كأن أحدهم اختطفه ؛ ليثير الرعب والاستفزاز في أخواله ومطلقته ، فعلى الأب أن يجعل ذلك اختطافا كما سنرى ، فهما متأكدان أن القاتل سيكرر ما بدأه ، فهم يحقدون عليه حقدا شديدا ، حتى أنهم دمروا حياة فلذات كبده الثلاثة كما عرفنا ، واجبروه قبل ربع قرن على ترك الوظيفة بعد خدمة امتدت عشر سنوات ، والحياة تحت رحمة الاغتيال مقيتة وصعبة ، لم يتقبلوا الطلاق الرسمي واعتبروه إهانة لذواتهم وهيئاتهم فهي التي هاجر وهرب من الحياة معها .

اختفى من جديد على حين غفلة من أهل القرية والبلدة ، اختفى نزيه يوسف مع إشاعة وإذاعة أنه اختطف ليلا من بيته تحت تهديد السلاح ، وانتشر بعد ذلك أن الخاطفين قتلوه ، ولسوف تظهر الجثة ، ولو بعد حين ، ونجح يوسف ببث هذه الإشاعات دون أن تبدو أنها صادرة عنه ومن فمه . ارتبك الناس في البلدة ووجد الخبر صداه في مدينة سلام ، فهناك من صدق ، وكان ينتظر ظهور الجثة للصلاة عليها ودفنها ، وهناك من يشكك بحدوث شيء كهذا ، فالناس لا تعيش في الأميركتين حيث تكثر مثل هذه القصص والجرائم ، فالذي صدق حادث القتل دفعه للتصديق بقصة الخطف ، لم يطلب الخاطفون كالعادة فدية ، ولم تظهر جثة

نزيه ، شك بوجود ذلك الخطف الكثير .

****

انتهى خطيب مسجد جمالة من خطبة الجمعة ، وقد كانت عن الإيذاء للمسلمين والتعرض لهم بالقتل غيلة أو الخطف لنزاعات دنيوية شخصية أو مالية ، ولما صلى الخطيب بالناس ركعتين صلاة الجمعة ، وسلم عن يمينه ثم يساره استدار بوجهه للناس فرأى الشيخ يوسف يصلي خلفه فأشار له بالانتظار . أخذ بعض المصلين بصلاة السنة البعدية للجمعة ، وفريق بذكر أذكار ما بعد الصلاة ، وفريق ثالث خرجوا من المسجد للصلاة في بيوتهم .

وحين قل المصلون نهض الشيخ وسلم وصافح الشيخ يوسف أبا إبراهيم الذي قام بدوره ، وكان معه ابنه نزار ، وبعد التحية والسلام قال الشيخ : ألا من أخبار عن أبي ناصر ؟

ابتسم يوسف : أنت ما أخبارك أولا ؟

ـ بخير .. كيف حالك يا أبا يزن ؟

ـ تمام بحمد الله .. سمعت من أبي أنك ستترك القرية وتعود للمدينة ؛ لعلك خفت !

ضحك الأمام عبد الله محمود : لي زمن في هذه الوظيفة .. وهناك موجة إحالات على إنهاء الخدمة .. هذا هو نظام الخدمة في الدولة والمساجد .. فكما يعلم الوالد الحبيب أنا لم أشهد الجريمة .. لما تنته الصلاة أذكر أذكار الصلاة البعدية ، وأغادر برفقة أبيك أو غيره حتى تفرق بيننا الطريق .. هل من أخبار عن نزيه ؟

قال نزار : لا أخبار .. ما زال مختفيا .. لا ندري هل حقا اختطف كما يتحدث الناس أم عاد للأرجنتين ؟.. لو خطف لم يطلب خاطفوه فدية ، ولم تظهر جثته لنقول كان مخطوفا صدقا وحقا.

الشيخ : الصبر يا أبا إبراهيم! هل توصلت الشرطة لجديد بشأن القاتل ؟

قال يوسف: يا أخي لا جديد .. لقد نجا الفاعل بفعلته .. وأشكر اهتمامك بنا .. سيعرف قاتل المهندس يوما ما.. الأمر لله من قبل ومن بعد يا شيخ عبد الله.. هل صدر كتاب التقاعد

الخاص بك؟

ـ بعض الزملاء يخبرونني بذلك ، وبعضهم يخبر بعدم صدوره بعد .

الشيخ عندما جرى اطلاق الرصاص لم يكن في المسجد ؛ إنما الذي كان موجودا خادم المسجد وكان يغلق باب المسجد ، وقد غادر كل المصلين للجماعة ، وأخذ بإغلاق الأبواب بعد إطفاء الأنوار ، وأثناء غلق الباب الرئيس ، سمع صوت الرصاص ، ثم صرخ المصاب وترنح على الأرض أمام دهشة نزيه ومساعد المهندس ، وعاد الخادم وفتح المسجد ، واستخدم الهاتف متصلا بالإسعاف ثم الشرطة .

الإمام عبد الله له زمن يسير في المسجد من حوالي عشر سنوات ، نقل إلى القرية من سلام تأديبا ولأنه مزعج للأمن في خطبه ، فهو عضو سابق في حزب التحرير ، فهو يحب الحديث في السياسة والتعليق على أفعال النظام وسياساته؛ فلذلك تنقل في عدد من مساجد سلام ، ثم نفي لجمالة وتعرف على يوسف وبعض أفراد الأسرة ، تخرج من كلية الشريعة وعمل معلما بضع سنين ، وتحول لدائرة المساجد للعمل كخطيب جمعة وإمام .

تعرف على نزيه قديما عندما كان يأتي جمالة زائرا تعارفا ، وسر بعودته النهائية ، وكان يريد مساعدته بالزواج من احدى قريباته ، ولكن الحادث الغادر صرفهم عن الموضوع ، وكان مثل ناس القرية مستغربا لوقوع هذه الجريمة الغامضة ، فالمهندس القتيل متزوج وعنده طفلة من زوجته الطبيبة ؛ ليقال جريمة عرض وشرف ، وجرائم القتل عن العرض في الغالب فاعلها يسلم نفسه للشرطة . تيسر له الحج أكثر من مرة مع بعثات الحج التابعة لدائرة المساجد، وكان يستطيع الفتوى اذا اضطر لها ، وكما قلنا هو مهتما بالقضايا السياسية مع بعده عن حزبه ونشاطه.

خرج الشيخ بصحبة الشيخ يوسف ونزار المهندس وتوقفا أمام بوابة المسجد الخارجية فقال وهو يشير بإصبعه : هنا جرت الجريمة .. اتصل بي بكر المؤذن وصوته يغمره الرعب شعرت به على التلفون .. وقلت أنا قادم وقد أخبرني بإخباره الشرطة والإسعاف .. وصلت سريعا يا

نزار !.. وجدت جمهرة من الناس من ضمنهم الشيخ الوالد .. كان أحدهم يساعد الضحية بوقف النزيف والدم .. كانت أكثر من رصاصة ..كان صديقنا نزيه مصدوما وممتقع الوجه والدموع تسيل .. وقال : لما ربت على كتفه فداني الرجل ..كانوا يقصدونني .. فقلت بدهشة: من هم ؟ ! سكت . حضرت الإسعاف ومدير نقطة جمالة، وبعد حين حضر مندوبو مكتب مدعي عام سلام والتحقيق الجنائي .. ودخلت أنا ونزيه ساحة المسجد هذه ـ وأشار إليها ـ وجلسنا على تلك الدرجات ، ثم نقل نزيه والشاب غانم للعيادة لمعالجة الصدمة .. كان يوما عصيبا على نزيه والقرية ككل.

قال الشيخ يوسف : نعم ، أول مرة في حياتي أرى قتيلا بالرصاص .. شاهدنا الأموات .. حضرنا عددا منها.

قال نزار: أنا كنت في المدينة كما تعلم يا شيخ عبد الله !

ـ أعرف .. حضرت وإبراهيم وباقي الأخوة الكرام .. غمر الحزن البلدة كلها .. الكل كان يرى أنها ساعات ويعرف القاتل ؛ لكن مرت شهور.

ـ هذا يدل على أنها مخطط لها .. والوقت وعتمة ما بعد الفجر ، وخلو الشوارع من السيارات والمارة سهل إلى حد كبير بانفلات الجناة.

فقال نزار : هل فعلا استطاعوا اختطاف أخي ؟ فالأخ منذ عاد وهو يصلي خلفك يا شيخ عبد الله.. ويجلس معك ومع رافع ابن عمنا ، وذكر أن لك قريبا اسمه عماد درس معهم في الجامعة ـ وهذا الاسم قوّى العلاقة السريعة بيننا .. ويوم الحادث تغيب رافع عن صلاة الفجر .. وعلمت من أخيه حامد أنه بات في سلام عند شقيقته.

قال يوسف وقد مشوا نحو منازلهم : كانت مريضة .. وأدخلت مستشفى نادي الرماية لعمل عملية .

فقال نزار : ألم يكشف لك نزيه شيئا عن خططه بعد الحادث؟

ـ كان راغبا بالزواج لما استقر بيننا ، وقد تحدثت مع ابن عم لي في شأنه .. وقبل الحسم جرى ما

تحدثنا به من دقائق .. وتأجل الموضوع .. كان موت المهندس صدمة كبيرة بالنسبة لنا .. وكنا نفكر بسبيل حمايته من الغدر مرة أخرى .. ذكرنا لما ترجح لدينا أنه المقصود بأن المجرم سيعاود الكرة ما دام طليقا قبل أن يقبض عليه .. وكان حزينا جدا على زوجة المهندس الأرملة الشابة والطفلة .

قال نزار : ولماذا خطفوه هذه المرة اذا صحت إشاعة خطفه؟

قال الشيخ : لم يثبت الخطف ، كيف خطفوه ؟متى خطف ؟ والشيخ يوسف لم يبلغ عن خطف؟

قال يوسف : عن ماذا ابلغ ؟ وأنت قلت لم يثبت الخطف .. ونزيه قد سافر للأرجنتين سرا قبل عقدين ونصف .. ويأتي دون إخبار ، ويسافر دون إعلام أحد .. العداء عميق بينه وبين أخواله .. وها هو تعرض لمحاولة اغتيال!

ـ هل تعتقد أن أخواله يفعلون ذلك؟

ـ أنا أظن فقط ؛ إنما هو شعور فقط ؛ لذلك لم نوجه لهم أي اتهام .. فنزيه كما تخبر ليس له أعداء إلا هم .. وأنا لا أعتقد أنه خطف فلماذا يخطف ؟!

ـ وأنا أظن ذلك .. فالقاتل لماذا يخطف؟! لا أدري كيف شاعت إشاعة الخطف والقتل وكيف بدأت ؟!

قال نزار بتردد : خطف وقتل وأخفيت الجثة ؛ كما نسمع ونرى في جرائم أمريكا والله أعلم .

كانوا قد وصلوا عمارة يوسف فقال : تفضل معنا يا شيخ عبد الله نفطر معية ونشرب الشاي .. ونسمع حكايتك مع المشيخة ، ونزاعك مع السلطة ، فكان نزيه يحدثني عن حزبكم العتيد.

وصلت هذه الأخبار والشائعات لمارينا وأولادها حتى ناصر ، فقال لها : أرجو أن لا يكون لك يد في محاولة قتل أبينا .. فأنتما دون زواج منفصلان منذ أكثر من خمس وعشرين سنة .. فلا أعتقد أن طلاقه يسيء إليك ولجدي أو حتى عمك .. فأنت بحكم المطلقة منذ رحل غربا .. فأنا مطلق وسامي وميساء .. فكلنا فاشلون بالزواج .. ولم نقتل بسبب ذلك .. وسامي كان زوج بنت إسكندر ابن عمك شاكر .. واذا تأكد ذلك .. وصدق ما يهمس به الناس سنضطر لقتلكم أنت وإخوتك دون رحمة وشفقة .. هو في النهاية والدنا ..ولا يعني أني أمشي على عكاكيز لا أستطيع استعمال السلاح.. أنا يراودني شك كبير بأن لكم يد في محاولة القتل التي أدت لقتل ذلك الشاب .

قالت باحتقار : دعك من التهويش .. فأنا لماذا أقتل أباك ؟! وكما قلت فلنا زمن مبتعدون عن بعض ..كنا بحكم المطلقين .

قال بحدة : يا مارينا ! أنا أعرف حقدك وحقد أبيك وحقد عمك على أبي الهارب منكم ..ولما جاء للحياة في وطنه اختفى .. ويشاع أنه خطف وقتل.

قالت بتهكم وهزء : أين الشرطة ؟ لم نسمع أن الشرطة تدخلت للبحث عنه وعن خاطفيه وقاتليه .. إنما هو عاد للأرجنتين ؛ لأنه جبان.. والهرب أسلم له .

تنهد بعمق وتأوه وقال : ليتني أصدق براءتكم ؛ فأنا أعرف خبثكم ولؤمكم .. إنكم تحقدون على أبي وجدي وكل أسرة يوسف .. كم من الألفاظ الحاقدة وقعت في قلبي منكم.. أنت وأبوك وعمك الحقود الأسود من زمن بعيد .. عمك سمعته يقول "فلت اللعين مني .. كنت سأحرقه لكنه فلت " وقال أبوك متبجحا "أجبرته على الاستقالة ، واعتقدت أنه سيأتيني ذليلا لأعيده لمركزه.. استقال وهرب المنحوس " .. وأنت أهملتي رعايتنا والعناية بنا .. وعلمتينا على كل قبيح لحقدك وبغضك عليه .. نحن دفعنا ثمن حقدك القذر وقذارتك ومجونك .. أنت والدة سيئة وهو أب جبان !

حركت رأسها مستنكرة : ولماذا نقتله يا ناصر؟ فما بيننا انتهى قديما.

ضحك وقال : ما دمنا أحياء لن ينتهي ما بيننا ..فهو أبونا .. والرجل لم يقصر في الإنفاق علينا وتدريس سامي وميساء ونداء.

قالت : يا ولدي العاق صدق أنه لا علاقة لي به ..فقد شطبته من حياتي .

دخل سامي المحامي وقال : أسمع صوتكم مرتفعا ..هل من شجار جديد ؟ ألا تنتهي المعارك بينكم ؟! أعتقد أن كل سكان العمارة يسمعون صراخكم .

قال ناصر : ربما هذه أول لم نتشاجر .. لكننا تعودنا على الصوت المرتفع والصياح.

قالت : تعال اجلس أيها المحامي النشيط !.. أخوك العتيد أبو العكاكيز يتهمني بخطف أبيك وقتله قبل أسابيع كما يشاع.. أتصدق هذا الاتهام ؟ وكما ذكرت بعض الصحف اللعينة

فقال بعدما جلس وأخذ يشعل غليونه الإنكليزي: والله معه حق يا أم ناصر !

صاح ناصر محتجا : ليست أمي نادها بيا سيدة مارينا .. تسميني أبا العكاكيز التي سمحت لي بالسكر منذ الصغر بعد هرب الأب اللعين الذي تركني لأم مجرمة

قالت بالكلام لسامي : اسمع .. لا يعلم كم أنفقت عليه للعلاج من الحادث ؟

قهقهه ناصر عاليا : هذا زعم يا سيدة مارينا ..لقد علمت أن أبي الهارب منك هو الذي دفع الكثير..

قال سامي : لا أعداء لأبينا يا سيدة مارينا إلا أنت وأبوك وعمك وبعض أولادهم .. فطول عمر الرجل في الخارج في الأرجنتين .. فهل في هذه الشهور تكوّن له أعداء ؟ لم يكمل السنة هنا .. وأنا أشك لا أتهم .. المنطق يقول ذلك.. هل لأبي أعداء في القرية ولأعمامنا أعداء يتربصون به ؟!.. لم نسمع بهؤلاء الأعداء .. فعمي إبراهيم قاضي كبير اليوم في المحاكم .. كبرت الناس.. السؤال المثير فعلا لماذا اختفى أبونا من جديد؟ لم ينتشر خبر سفره وهجرته.. انتشر خبر خطفه وقتله ، وما لم تظهر جثته سيبقى كمفقود .. والمدهش حقا لماذا اختفى ؟ ! لي اتصالات مع أولاد أعمامنا .. وأكدت لي نداء ابنة أبي أن والدها لم يعد في القرية .. فهي تتردد

على القرية دائما وزوجها الدكتور الصيدلي صديق صديق لجدي يوسف والد زوجك الشرعي

قال ناصر ساخرا : وهل لها زوج غير شرعي ؟ لم نحضر العرس يا سمسم .

تابع سامي السخرية : كان لها عرسان كثر يا ناصر علمتنا الوقاحة للأسف ؛ ولكنهم اليوم هجروها وملّوا منها ومن دعواتها .. أصبحوا ذكريات ورفقاء كأس فقط ، كما قال أحدهم العمر عبر.. والنساء تكبر بسرعة.

وتابع ناصر سخريته وقال : جميل يا سامي قولك زوجها الشرعي !.. اليوم لا أحد يتطلع في وجهها رغم تبرجها وصالوناتها وثيابها أمامهم عارية .. أمك أصبحت عجوزا يا حضرة المحامي .

ـ الحقيقة أمك عجوز منذ تخلص منها أبونا .

قال : لا ، لا ، ما زالت شابة .. أمورة وحلوة وتسهر وتلعب الورق والقمار.. بس دائما خسرانة .. آه لو تسمع ألفاظها الفاحشة مع شلة الأنس .. فتظن نفسك في كرخانة وسوق الخنزير في قلب المدينة حيث يجتمع الحشاشون وحثالة المجتمع حتى أنني مرات اضطر أن أخرج من غرفتي وأقف أمامهن ليخففن من قبحهن ويخجلن .. ومرات يتمادين بالقبح والزفت .. على كل دعنا من أخلاق هذه العجوز الشمطاء .

صاحت وماجت وقبحت ولعنت وقامت تقول : أنا عجوز شمطاء !! أنا أمكم يا ملاعين ! يا لكم من ذرية عفنة مجرمة !

غمرتهم القهقهة وقالوا: تربيتك يا طاهرة !.. أنت جنيت علينا .

عادت للجلوس وهي تشعل سيجارة من جديد وتقول موبخة : لا تلوموني يا همل .. لوموا أنفسكم .. أنتم جنيتم على أنفسكم .. ها هي نداء امرأة صالحة .. لو كنتم ترون أني أجرمت في حقكم كنتم أخذتم طريق نداء صغراكم .. كنتم قد جعلتموها هدفا ونصبا لسخريتكم .. كفوا عن تحميلي فشلكم في حياتكم وزواجكم .

قال سامي : أبناء من نحن ؟.. هل أنت فعلا بريئة مما يشاع يا سيدة مارينا أم ناصر

قالت بتأفف وضجر : ولمَ اقتله واشنق من أجل رجل تافه.. لن أرث عنه درهما واحدا .. أنتم ورثته .. فأنتم ربما تسعون للخلاص منه لترثوه.

قال سامي : لسنا وحدنا .. لنا أخوة أربعة في الأرجنتين .. فماذا سينالنا ؟ .. وأكثر مشاريعه شراكة مع ابن عمه الذي مات هناك كما خبرنا أو مع أهل زوجته الشوام .

قال ناصر : سمعت أنه انفصل عنه قبل موته .. فكل يعمل وحده مع ذريته .. هكذا علمت من أختنا الصغيرة أم محمد .. فهل لديه ثروة كثيرة يا سامي لنهتم بميراثه؟

قال المحامي: لم تثبت وفاته يا ناصر .. لم تظهر الجثة لنطالب بحصتنا .. فالأمر يا أخي البكر غامض.. هو يعتبر الآن مختفيا مفقودا .. لم تقم الشرطة بأي تحريات .. ولم تخطر ببلاغ .. فدعك من أحلام الثروة .. فها هي ـ هذه ـ كنزك .



مضت ستون يوما على انتشار خبر خطف المهاجر نزيه يوسف ، حضر البلاد ابنه جعفر المعروف لأقربائه في جمالة ـ قد جاء به نزيه قديما وهو شاب صغير ـ والتقى بجده يوسف وبعض أعمامه وأقربائه في جمالة ، وشاع أن الرجل قدم من وراء المحيط الأطلسي يسأل عن أبيه المفقود ، ويتحر عنه عن اختفاء أبيه .

ونشرت بعض الصحف الخبر ، وذكرت القراء برجل الأعمال والمال نزيه يوسف ، وكرر خبر اختفائه قبل ستين يوما ، وأن الاختفاء حدث بعد أسابيع من محاولة اغتياله الفاشلة والتي أدت إلى قتل شاب ، وأن الشرطة لم تعرف لحد اليوم القاتل للشاب أمام أحد مساجد البلدة .

وتعرف جعفر في الزيارة التي لم تكن الأولى على أخته من أبيه نداء ، وعلى زوجها صديق وتذكرهما ، وسعد بالتعرف عليها وبقرينها واللقاء بهما ، ووعده بفتح مصنع دواء على مستوى البلد ، وتابع جعفر مبنى المدرسة والمكان الطبي، واتفق مع صديق على إقامة صيدلية مشاركة بينهم بجوار المركز الطبي .

وأدرك الشيخ ومن حوله أن الشاب حضر باتفاق مع والده المختفي من أجل المدرسة والمركز ولتحريك قضية اختفاء أبيه ، وظهر أمام سكان البلدة بثوب الباحث عن والده المفقود . امضى جعفر شهرا في ربوع وطن أبيه ، ثم ودع الأقارب وغادر إلى الأرجنتين. فكانت زوجة يوسف أم نزار تقول لزوجها بعد سفر جعفر : أنا في حيرة !.. هل حقا جاءنا يسأل عن أبيه يا حاج يوسف أم لمتابعة مشاريع أبيه ؟ أنا فعلا في حيرة يا حاج يوسف من اختفاء ابنك ، ولم تحرك ساكنا ، لم تشكو للشرطة حتى نزار ابني البكر قال : أرى يا أمي أن أبي لا يهتم بأمر اختفاء نزيه أم أن أبي اعتاد على فراقه .. ومجيء جعفر وتحدثه عن ذلك الغياب ، ولم يخطرا الأمن والبوليس .. ولم نعرف لليوم أعداء أخي ..ولم نر تحقيقا .. وسين جيم

ابتسم يوسف لقرينته التي تصغره بما يزيد عن عشر سنوات وقال : يا أم نزار نحن استيقظنا من النوم ، ثم علمنا أن نزيها لا يوجد في البلدة ، لم نر جثة ، ولم نخبر بسفر أو وداع فماذا

سنقول للشرطة ؟ هل هو صغير فاقد للأهلية ؟ لم يهدده أحد بالخطف.. هو رجل عاقل مدرك .. صحيح هو تعرض لمحاولة قتل، ولم تستطع الشرطة الوصول للجاني .. وما زال دم خالد معلقا .. وأهله يقولون لماذا يقتل خالد ؟.. وكلنا يقول لماذا يقتل المهندس خالد ؟.. لا نشاط سياسي له ، ولا علاقة له مع عصابات ومهربات

قالت : هذا المحير! أجمع أهل البلدة أن المقصود ابنك نزيه .. ولماذا ؟! وهو حضر من السفر من شهور قليلة .. وليس له أعداء سوى أخواله ومطلقته .. وتبين أن لا علاقة لهم بالمحاولة والجريمة .

قال بشك بين : لكن هذا لم يثبت ؛ لأنه لم يقبض على القاتل .. هذا ما يجعلنا في حيرة .. ولو قتل نزية لظهرت جثته .. وإذا كان خطف لم يطلب أحد فدية.. هل غادر خشية أن يقتل ويؤذى ؟وهل له أعداء في الأرجنتين طاردوه إلى هنا ؟ .. ومجيء جعفر إلى هنا يدل على أنه لم يذهب إلى هناك إلى تلك البلاد .. لم يتخلص من مشاريع أبيه ؛ بل تابعها ، وكلف صديقا وحسنا شقيقه بالاهتمام بها .

قالت بحيرة : رغم ما تقوله يا حاج يوسف أحس وأشعر أنك تعرف أين ذهب ولدك ؟ .. من البداية أدرك الجميع ذلك !

قال باسما : قد يكون شعورك صحيحا وصائبا

قالت : ألم يتصل ؟

ـ ولماذا يتصل ؟! الرجل كاد أن يقتل برصاص الغدر ، ورأى عجز الشرطة عن معرفة العصابة والجناة .. واختفى حتى يكتشف الجناة أو تمسك بهم الدولة .

****

بعد سفر جعفر بأيام حضر ضباط التحقيق الجنائي من مدينة سلام الدين بصحبة مدير نقطة الأمن في القرية وما حولها إلى منزل السيد يوسف الجمالي .

رحب الحاج بهم ، وهو على معرفة بزعيم نقطة الشرطة المحلية الذي عرفهم على بعض ،

وشرح للحاج الهدف من الزيارة من قبل رجال التحقيق ، وسألوه عن قصة اختفاء ابنه نزيه الذي أثار لغطا وإشاعات تنشرها الصحف والمجلات ومحاولة الاغتيال .

فرد يوسف :لا أعلم شيئا! لقد حققت الشرطة في جريمة قتل المهندس خالد أمام المسجد بعد انتهاء صلاة الفجر وانصراف المصلين ؛ كما يعرف حبيبنا الملازم أبو حسن .. فكان ابني نزيه والمهندس خالد ـ رحمه الله ـ وشاب ثالث عصام بناءة يتحدثون عن بناء مدرسة ومركز صحي جديد في البلدة ؛ وفجأة اطلقت عليهم النار من سيارة سوداء وهربوا، وترجح للأمن أن المقصود ابني ، والواقع يؤكد ذلك ، ودفع ولدي ألف دولار مواساة لأسرة القتيل .. ريثما تعرف الشرطة الجناة .. وبعد ذلك بحين يسير استيقظنا على اختفاء ابني من البلدة ، فخرجت تلك الإشاعات التي يتحدث الناس على أثر الاختفاء .. لعله سافر خفية كما فعل سابقا .. فلم نر جثة ولم نتلق طلب فدية ؛ كما يكون العادة من الخطف .. فكيف سنبلغ الشرطة عن رجل بالغ عاقل ؟! فربما والراجح أنه هرب حتى لا يتمكن منه خصومه الذين لا نعرفهم .. والشرطة كما يعلم الضابط لم تعرف السيارة ، ولا المعتدين .. فهل نستطيع فعل شيء غير واضح قبل ظهور جسم ابني اذا كان ميتا .

وحدثهم ببعض حكايته مع أخواله وزوجته المطلقة ، وهجرته للأرجنتين ؛ ولعله كما قلت لأبي حسن اختفى بإرادته؛ للحفاظ على حياته.

قال المحقق : نحن تحدثنا قبل المجي للقرية جمالة واللقاء بك سيد يوسف مع ابنك القاضي إبراهيم يوسف في المدينة سلام .. التابعون أنتم لها إداريا .. قال لنا كما قلت إن شفيقه هرب قديما من أهل زوجته أخواله للأرجنتين للراحة من النزاع والقيل والقال .. وقضى ثلاثين سنة هناك .. في البداية وأول الأمر لم يعرف أحد قصة السفر خفية ؛ فلعله فعل كالسابق ؛ لكن لما حضر ابنه من هناك يسأل عنه ارتفع الشك لدينا في خطفه وموته وإخفاء جثته في قبر مجهول .. وقال لنا القاضي : إن الأمر محير ، فأولاده يسألون عنه ، ولم يتصل بهم كما أخبر حفيدك عمه .. أنت ما رايك؟

قال الشيخ : رأيي يا سيدي أن الأمر غامض .. منذ اختفى لم يتصل بي ، ولا بابنته الطاهرة نداء في مدينة سلام .. وهو يحبها كثيرا ، فهي الوحيدة من أبنائه هنا على علاقات طيبة معه ومعنا ، وهي الصالحة من ذريته هنا ؛ وإنما سعى جعفر ابنه الأرجنتيني لمعرفة مصير والده لما وصلت الإشاعات إلى بيونس آيرس .. فذكرنا له ما سمعتم .. ولم نجد شيئا يستدعي دعوة الشرطة .. ماذا نقول ؟ فالشرطة كما قال بكري إبراهيم أخبرته أن اسمه لم يخرج من الحدود البرية والبحرية والجوية .. ومن أجل ذلك لم نقدم شكوى للشرطة.. فلعله مختفي داخل البلاد يا أبا حسن والأخوة الكرام .. وذلك خوفا من اغتياله والمحاولة من جديد اذا ثبت أنه المقصود من الاغتيال الفاشل كما رجح الناس ونحن .. وأخطر أعدائه أخواله وهم أصحاب شركات ونفوذ في المدينة وأيضا مطلقته .. والشرطة قالت لا دخل لهم في الجريمة .. فهي جريمة ما زالت مفتوحة على ما أظن .

قال : الشرطة لا تستطيع التدخل بشكل رسمي إلا باتهام معين أو معينين وبلاغ رسمي لدى المدعي العام أو الشرطة .

قال يوسف : نحن في الحقيقة تعودنا على غيابه .. فهو قضى نصف عمره اذا كان هناك نصف وربع للعمر في الأرجنتين وحضر من زمن قريب .. هو هاجر وتزوج وانجب في الغربة ؛ إنما أحب أن يكمل سنين عمره هنا بيننا .

فقال القائد : نعتقد من حديثك أنه اختفى بإرادته ، وما زلنا نبحث ونتحرى عن الجاني في قتل المهندس ابن هذه البلدة .. لم يستطع أحد أخذ رقم السيارة لسرعة اختفائها أو أخفي الرقم بطريقة ما .. وانشغال ابنك والشاب الآخر بالمصاب المفاجأة كان لها تأثير عليهم .. حتى اللون لم يتضح بشكل دقيق .. فعتمة الشارع وانطفاء أنوار المسجد ساعدت على إخفاء مواصفات السيارة .. ولم يكن أمام المسجد سواهم الثلاثة عندما اطلق الرصاص .

عقب يوسف : كان معد للجريمة بصورة جيدة .

قال القائد : صحيح ! أنا بنفسي راجعت ملف القضية قبل أن أقابل ابنك إبراهيم ووجهة

نظرنا قريبة من بعض .. علمنا أن ابنك قلل من الخروج بناء على نصح الأمن والضابط علي أبو حسن ؛ بل علمنا أنه كان يكثر من النوم في هذا المنزل بعد الحادث ؛ لأنه يعيش وحيدا منذ رجع من غربته يعني قل مبيته في بيته الخاص .. فنرى أنه أمام هذا الواقع فكر وهرب وخرج من القرية وكل البلد .. ما رأيك ؟

هز يوسف رأسه ورد : الواقع يقول ذلك ، ولم يخرج بشكل رسمي من البلاد خشية أن يعرف خصومه جهة هربه ..لديهم إمكانات لمعرفة جهة خروجه .. أو ما زال في البلد مجهول مكان الإقامة طالما القاتل مجهول .

ـ لم تثبت أي علاقة لهم بالحادث .. صدق أن مدير البوليس تحدث معهم بكل صراحة .

ـ ربما له خصوم غيرهم .. له شهران ونصف في البلد .. مهما فكرنا في الأعداء والخصوم والشر . . هل هناك غيرهم ؟

الضابط : أليس هم أخواله وأصهارك ؟ .. فهو تزوج ابنة خاله باكر .. حتى أولاده لم يلتقوا به عند عودته إلا ابنته الصغيرة.

قال: نعم ، كأنه ليس أباهم .. الشك موجود سيدي القائد ؛ لأنه لما حط قدمه هنا أول أمر فعله أشهر طلاقه من أمهم ؛ ربما أوقع لديهم ردة فعل .. وأرسل لها عقد الطلاق مع المحامي .. فهي كانت بحكم المطلقة منذ وطئت قدماه تلك الديار .

قال : على كل ما زلنا يا أبا إبراهيم نتابع التحقيق والبحث عن قتلة الشاب، ولم تغلق القضية ، واذا جد جديد سيكون لنا حديث .. وفعلا نفى أصهارك بحزم أي علاقة لهم في الاغتيال .. ولا مصلحة واضحة في المحاولة .. وقالوا ماذا نجني من قتله ؟ فهم لا يرثونه وأختهم زوجتك ماتت قديما .. وزوجته كانت في عداد المطلقات وموقف أولاده في السليم .. واستئجار قاتل يضع الجميع تحت الابتزاز فرقبته تحت حبل المشنقة لموت المهندس

قال: أكيد.؟ أنا أشكر اهتمامكم للقضاء على الشائعات.

أثارت رحلة جعفر لبلد أبيه إزعاجا وقلقا في أنحاء البلدة ، وتبعها مجيء الشرطة لبيت يوسف فزاد من الإشاعات والخوف والدهشة والحيرة بين سكان البلدة ، وما حولها من البلدات الزراعية ، وكذلك بين إخوة نزيه والعائلة الكبيرة ، في الأول غلب على ظنهم أنه عاد للأرجنتين سرا لدواعي أمنية بطريقة سرية وخفية ، وشاع وراج بين الناس أن الشرطة ربما وجدت جثة نزيه ، وجعفر أفصح لأقاربه بأنه لم يلتق أباه منذ ترك الغربة ، ولاحظ الأخوة أن والدهم لم يكترث كثيرا لغياب نزيه ، ولم يقلق فغلب على قلوبهم أنه علم بغيبته ومكان سفره ولكن مجيء جعفر وتر الأمر بينهم وأربك خواطرهم ، فتسألوا هل الاختفاء مدبر أم أن هناك جريمة قتل فعلا ؟! وجاءت الشرطة للبلدة فارتفع التوتر القلق بينهم ، وأجريت تحريات وسؤلات فزاد الغموض ، لا أحد لديه معلومات عن الاختفاء ، فهو بعد الحادث قلل الاختلاط مع ناس القرية إلا في منزله أو منزل أبيه من باب الحذر ، وقلل من الخروج للأماكن العامة ، كالمساجد والمقاهي والنوادي الثقافية والعلمية والشعرية ، وأوقف مشاريعه الجديدة حتى جاء جعفر ، وبدأ العمل فيها ، ودخل زوج نداء صديق في المشاريع والبناء والصيدلية ، والأب يوسف لم يتكلم لأحد بشيء خاص منذ اختفاء نزيه الغامض .

فقال أحدهم متمنيا : لو الشرطة ألقت القبض على قاتل المهندس المسكين لما وصلنا إلى هذا الوضع المحير والمربك !

قال إبراهيم : لو .. لو .. الشرطة عجزت فليس لديهم خيوط وإشارات عندما يصلون إلى جديد سيتحركون .. فاضطر أبو ناصر للاختفاء دون علمنا ، وليس له أصحاب ثقات ؛ ليكشف لهم أمره ووجهته .. هكذا فهمت الأمر ابتداء .. ولا أدري كيف شاع ، وبدأ أمر الخطف والقتل ؟ كيف بدأت الإشاعة ؟ ومن نشرها ؟! كيف قالوا قتل ولا وجود لجثة ؟ ولو وجدوا جثة في مكان ما لطلبوا منا أو من أبنائه مشاهدتها والتحقق منها .

قال نزار : ولكنك يا إبراهيم يومها لم تبد قلقا وخوفا وانزعاجا .. وأبي لم يهتم للأمر .. فترك

ذلك لدينا انطباعا أنكما تعرفان شيئا وتكتمانه .. واحترمنا سكوتكم أنا وبقية الأخوة والأخوات .. فقلنا بينكم سر خاص فلزمنا الصمت .

رد إبراهيم : قال نزيه تلك الأيام ما دام لم يثبت لدى الشرطة شيء لابد من حل .. لم يكن أمام نزيه البقاء ، فهذا ما خطر لي تلك الأيام العصيبة.. فالذي سعى لقتله أول مرة سيعيد الكرة .. فأصبحت حياته مقيدة كما تعلمون .. كان راغبا بالاستقرار والزواج حتى الموت وانتهاء الأجل ؛ لكنه لم يرد أن يموت مغتالا وغيلة .. وتألم وحزن كثيرا على اغتيال ذاك الشاب الطيب الذي أصابته رصاصات الغدر بدلا منه .. والشاب لم يكن غريبا عن البلدة ، فهو ابنها ولم نعرف له أعداء ؛ ليقال أنه المقصود .

قال نزار متمما : أجمع الناس والشرطة أن الهدف هو نزيه شقيقكم .. وأخوالكم هم أعداؤه وخصومه .. والشرطة تزعم وتؤكد أنهم أبرياء ولا مصلحة لهم في إيذائه وأبرياء من دم القتيل .. كيف تأكدوا لم يحدثوننا بذلك؟ .. والقاضي إبراهيم حاول معرفة أسباب ثقة الشرطة ، فأكدوا له أن مواقعهم الإدارية التي كانت لهم في الدولة تصعب مهمة إقدامهم على الجريمة .. خاصة أننا أقارب كما قالوا ، ولا فائدة تعود عليهم من قتله .. ولا دلائل على الجريمة سوى عداوتهم القديمة وإجباره على ترك الوظيفة .. أما نحن فلليوم لا نرى أنهم أبرياء .. وأن حقدهم دائم .. ومن أهم الأدلة على الحقد ـ ولو كان قديما ـ أنهم افسدوا ذريته عليه حتى مجرد سلام على أبيهم لم يفعلوا .. أليس كذلك أيها القوم؟!

قال زكريا : الظواهر تدل على ذلك ..لا يعقل أن ناصرا أو ساميا يستعجل قتل أبيه .. فناصر ضعيف الحركة وسامي محامي .. وله سمعة جيدة في المدينة .. ومطلقته مارينا ماذا تستفيد من مقتله ؟ فأمهم تملك الكثير من الأموال والأرصدة كما هو معلوم .. ودرس الشباب على نفقة أبيهم لم يقصر معهم ماديا .. وشارك في علاج ابنه عندما تعرض لحادث وهو سكران منذ سنوات .. والقاتل في الشريعة لا يرث مورثه كما هو معلوم في شريعتنا .. الصحيح أن لا علاقة بين القتل وأولاده ؛ لكننا خاصة من يعيش في المدينة يسمع أخبار أبناء أخوالنا وأخوالنا

من قبل .. فهم نجوم وأصحاب مراكز علمية وتجارية .. فأخبارهم معروفة لمن يهتم بهم.. والشرطة أكدت لإبراهيم أن لا يد لهم في الجريمة .. فقلنا لعل له أعداء من الغرب مع صعوبة هذا الاحتمال .. فله هناك زوجة وأولاد وأقارب .

قال القاضي : كلنا يعرف هذا التحليل .. ما الحل ؟ الخطف جريمة كبرى .. والعصابات تخطف من أجل المال الفدية أو من أجل الشاهد أو إسكات الخصم العدو بالخلاص منه .. وفي الغالب تظهر جثة المخطوف ولو بعد حين .. نحن نعيش في حيرة وارتباك أيها الكرام .. فسكوتنا عما حدث أصبح مزعجا لنا وللأقارب ولأهل القرية .. فكلما نقابل أحدهم يقول طال صمتكم .. يجب أن تتحركوا .. الابن البعيد حضر يسأل عن والده لما سمع بغيابه .. وأنتم صامتون .. ماذا نفعل لمواجهة الناس ؟ من أجل هذا طلبنا هذا اللقاء.

قال نزار المهندس : الحق أننا لا ندري ما يجب فعله! لو كان عند الشرطة شيء مفيد لأخبرونا به ؛ لأخبروا به على الأقل الدكتور القاضي .. فهو ابن الدولة مثلهم .. فعملك الكبير يلزمهم الهمس لك بما عندهم ولو مجاملة .. وأنت معروف لهم .. فلك عشرات السنين في سلك القضاء ولك أصدقاء في وكلاء النيابة .. هل فعلا أن السيد أبا ناصر مخطوف ومقتول .. عن نفسي من ناحية الإحساس لم أحس وأشعر بذلك .. والإحساس ليس دليلا على حياة البشر وموتهم.. صحيح أن بعض الجثث قد تختفي سنوات وسنوات ولا تظهر .. أنا متأكد أن هذا لم يقع في قلوبنا منذ اختفاء نزيه .. واعتقدت أن أبي العزيز بينه وبين الأخ المهاجر شيء خفي.. لم يظهر قلقا وخوفا وحزنا على غيابه.. واعتقدنا أنه عاد لزوجته وأولاده هناك.. ولا أدري لماذا يخفي الحاج الوالد عنا اختفاء نزيه؟!

فلما احدقوا النظر في وجه أبيهم تبسم وقال باسما : دعوا الكلام للزمن أيها الأعزاء فجعفر جاء كما فهمت منه لمتابعة مشاريع أبيه وموضوع الصيدلية الخاصة بصديق ؛ لأن نزيه تكلم مع صديق ونداء قبل الحادث .. وها أنتم ترون أن الرجل يتابع من مخبئه الأعمال والإعداد لإنشاء مصنع أدوية كبير على مستوى القطر والأقطار المجاورة كالأردن والعراق وبلاد الشام

قال القاضي : وليس كما أشاعت الصحف أنه أتى ليبحث عن أبيه !

هز رأسه وقال نافيا : هذا أمام الناس.. تحدثنا عن العمل، لم نتحدث عن الاختباء

قال إبراهيم بعد صمت أبيه : يمكن أن أقول لكم إن شقيقنا العزيز حي يرزق ؛ وربما هو في الأرجنتين ؛ فالوالد مطمئن جدا .. لكن كيف خرج بدون المرور على الحدود فهذا مثير .. فاسمه لم يظهر برا ولا بحرا ولاجوا لا بجوازه المحلي ولا الأجنبي .

قال نزار : ربما كان ذلك من ضمن الخطة بينه وبين أبي يا دكتور إبراهيم

إبراهيم : المهم أنه حي وموجود ، وأخفى أمره لحاجة في نفس يعقوب.

قال زكريا : نعم ، حاجة في نفس يعقوب.. وهذا المهم وبيت القصيد أيها الأخوة الأعزاء.

****

بعد هدوء دام لأسابيع أتى جعفر للبلدة من جديد ، وعادت الصحف أو بعضها تتحدث عن اختفاء نزيه يوسف الغريب ، وزعمت أنه قدم لمتابعة البحث والتحري عن والده المختفي منذ عدة شهور. وعادت الشائعات والقيل والقال ، وكان صديق قد انتهى من بناء المدرسة والمركز الصحي والصيدلية ، واتفق مع جعفر وأخوة نزيه على متابعة التشطيب وإقامة الكادر وأن يكون العاملون ممن يرغب من أهل البلدة وعلى رأسهم زوجة القتيل الطبيبة النسائية سميرة حسين اذا أحبت ترك العمل في الحكومة.

فالمدرسة متهيئة لتدريس الطلاب الذكور من الصف الأول الأساسي إلى انتهاء المرحلة الإعدادية الأساسية ، وشكل صديق وصهره جعفر مجلس إدارة للمدرسة وآخر للمركز الصحي ، وأخبر صديق جعفرا أنه وجد قطعة الأرض المناسبة لإنشاء المصنع ـ مصنع الدواء ـ وأنه يستطيع المساهمة بثلث المصنع ، وعلى جعفر تغطية الثلثين ، ووعده بالرد سريعا ومن ثم تحويل الأموال ، وربما يقتسم الثلثين مع أبيه ، واعلمه أن أباه على وشك العودة كما قال في حديث بينهما . وكانت الصيدلية الخاصة في البلدة باسم صديق ، ولجعفر نسبة بسيطة في رأس المال اتفقوا عليها ، ورغبه جده يوسف بإقامة مدرسة مثلها للإناث.. فاليوم إقبال كبير على

تدريس البنات في المدارس الأهلية .. وأقسم جعفر لعمه إبراهيم أنه لم ير والده منذ غادر الأرجنتين ؛ ولكنهما يتواصلان بالرسائل والهاتف في بعض الأحيان ، واعترف لعمه أنه في قطر مجاور ، وعلى وشك العودة للقرية تصحبه زوجة جديدة .

فسكت إبراهيم لثوان وقال : أصدقك ، وأنا الآن متأكد أنك جئت بأمر من أبيك الغالي . وبارك له على إكمال مشاريع والده ، وحياه على الاستثمار في البلد ، وأثنى على صديق زوج ابنة شقيقه نزيه.

كان جعفر على اتصال مع والده منذ حادثة الاغتيال ، وعلى علم بالمنفى الاختياري والغاية من السفر . وكان نزيه قد قطع الاتصال بوالده منذ خروجه ، وطلب من ولده جعفر متابعة المشاريع التي رسمها رغبة بعدم إشغال جده بمثل هذه الأمور ، وكان نزيه قد رتب لخروج سري وتهريب ؛ ليلتقي بضابط عربي أرجنتيني عمل في الشرطة الجنائية ، وصديق له في الشام عاد لبلده مثله الذي سلم أعماله إلى ذريته هناك ، يريد منه أن يكشف له من قام باغتياله ، وقبل الضابط المتقاعد خدمته مقابل أجرة ومصاريف ، وكان عليهما أن يلتقيا في دمشق الشام. قضى جعفر المهمة التي كلف بها من قبل والده ، وودعهم وغادر جمالة ليلا وخفية كما جاء على غير ميعاد .

نعود لنزيه المهاجر كما يحب أن يسميه إخوانه وأهل البلدة ، فقد سمعوا من جعفر أنه سيعود قريبا بدون تحديد وقت معين ، وتركهم ينتظرون عودته من مهربه ومنفاه الاختياري ، خرج من جمالة كمغامر بترتيب معين إلى مدينة عمادنا ، وهي بلدة حدودية عن طريق شاب تعرف عليه في أحد مساجد البلدة الذي وعد بمساعدته بعد نجاته من الاغتيال ، فهذا الشاب أوصله سرا إلى رفيق له في بلدة عمادنا الحدودية ، تعرف عليه أثناء عمله على الشاحنات الكبيرة التي تعمل بين الدول والأقطار لنقل البضائع والخضار والفواكه ، ورتب له الهرب إلى الشام دمشق عن طريقه بدون أن يعبر نقطة الحدود الرسمية حتى لا يختم على جوازه زيادة في الحذر ؛ ليلتقي بالضابط السوري الأرجنتيني الذي عرفه أيام الهجرة الطويلة كما روينا ، وعلى السائق ابن تلك القرى تهريبه لسوريا بدون العبور على حدود رسمية كما يفعل مهربو المخدرات والممنوعات ، فاستطاع زياد رفيق أحمد الجمالي إدخاله سوريا دون المرور على نقطة الشرطة والحدود ببعض المال داخل شاحنة محملة بضاعة ، ولم يختم على زواجه بالعبور ، فلم يسجل عبوره برا ولا بحرا ولا جوا وذلك كما يرغب ، ونزل في قرية قريبة من أبواب دمشق بضعة أيام ؛ لينتقل منها إلى شمال غرب سوريا مدينة قريبة من البحر الأبيض المتوسط في منطقة إدلب السورية ، وهناك تظاهر وظهر أنه سوري أرجنتيني كما ظهر في جواز سفره الأرجنتيني والتقى بتاجر اسمه عايش حسين زوده باسمه زياد سائق الشاحنة ، وبعد تعارف يسير شاركه في متجره على أن يتزوج أخته الأرملة والمطلقة السيدة عريفة حسين الإدلبي .. هذا رتب له قبل الرحيل السري ، بعد حين تزوج نزيه من المرأة شقيقة عايش ، وكانت تملك شقة أو بيت قريب من بيت أخيها عايش الإدلبي ، وكانت أرملة لديها بنت واحدة تدرس في الجامعة ، فساعد في تعليمها والصرف عليها كما اتفق مع أمها وخالها.

نزل نزيه بعدما تزوج الأرملة مدينة دمشق ، واتصل بالضابط البوليسي نواس العائد من الأرجنتين قبله بسنوات ، والتقيا في صالة فندق كبير وسياحي ، ولما انتهيا من الطعام ذهبا إلى

غرفة نزيه ، وحدثه وروى له محاولة اغتياله في قريته الهادئة والوديعة ، ولما فهم المحقق القضية وما هو المطلوب منه غادر الفندق مستعدا للسفر إلى مدينة سلام .

وبعد أيام قضاها في ربوع دمشق رجع نزيه إلى إدلب وبيت زوجته الأرملة التي كانت تحلم بالخلفة والولادة من نزيه ، فهي لم تكن صغيرة كانت في الأربعينيات من العمر ، ففرصة الحمل ستكون ضعيفة لمن في مثل سنها ؛ ولكن ممكن أن تحمل وتلد المرأة في مثل هذا السن .

ووجد نزيه أن لديها رغبة قوية في الحمل والولادة ، وكانت تضغط في هذا الاتجاه ، وهو لا مانع لديه بالحمل وأن تلد ؛ لكن كما علم من شقيقها عندها بعض المشكل الصحية ، فاهتم بعلاجها والإنفاق بسخاء ، وهو يعلم أنه أحد أسباب دوام العشرة بين الزوجين ، ويتنازلون عن المشاكل التي تعصف في الأسرة من أجلهم ، والرجل يعتبر مليونيرا حقيقة ، غني قادم من الأرجنتين ؛ حيث نجح ماليا واقتصاديا ، وأصبح دكتورا في المحاسبة والإدارة المالية ، ويتقن الإنجليزية والإسبانية لغة الأرجنتين المكتسبة من الاستعمار الإسباني للقارة الجنوبية .

ومع التردد على العيادات في الشام وتركيا المدن القريبة من الشمال السوري لم تثمر عن شيء من جهتها ، فتحدث نزيه مع عايش شريك التجارة في المواشي والصوف الطبيعي أن تكف عن طلب الولادة بعد عدم الفائدة والعجز عندها ، وقد رافقها عايش في السفر إلى الشام ومقابلة أخصائيين العقم والنساء . وخلال فترة البحث عن علاج كان نزيه قد التقى بالضابط المحقق كارلوس سعيد نواس الذي قال له: يبدو أنك أخطأت في اتهام أخوالك وزوجتك المطلقة يا نزيه .

فرد نزيه متأملا : أنا أثق بكلامك .. هناك قاتل وجريمة حدثت .. لا أعتقد أن أحدا أتى من الأرجنتين ليغتالني في بلدي يا كارل! لابد من عدو ..والقتيل لا أعداء له ؛ ليكون هو المقصود .. فلماذا يقتل ؟!

فقال المحقق المتقاعد : ظهرت في المجتمع المخملي كمهاجر غني قادم من أمريكا .. تعرفت على بعض أصدقاء أسر أخوالك مدعيا الرغبة بالاستثمار في البلد كما اتفقنا .. قدمت لي

مشاريع متنوعة ، وخلال شهر دعوت للسهرات والحفلات بكل سهولة .. مستثمر قادم من الغرب .. حتى أنني شعرت بأنني مكشوف ومعروف رغم أني لم أر تلك الوجوه من قبل يا نزيه .. سهرات حفلات دون فائدة .. والتقيت بمطلقتك مارينا وابنك سامي المحامي.. ودعتني للبيت ساعية لعلاقة جنسية مع مستثمر أجنبي .. وبينت لها ولغيرها من نساء ذاك المجتمع كبري وضعفي فانصرفت عني.. كبيرة وما زالت تبحث عن لذة الجنس ..وتزعم أنها تلتقي بشباب .. ولن أصدق أن شابا يلتقي بها لمضاجعتها يا نزيه.. المهم أنها منحلة لأخر درجة كما ذكرت لي .. وابنك سامي لا يُكن لها أي احترام حتى زعمت لناصر ابنك وسامي أنني التقيت بك أثناء زيارة لأقارب لي في الأرجنتين فاعلمني أنك عدت للبلد ، ثم هربت بعد محاولة أحدهم النيل منك.. لم أجد أثرا ولو صغيرا يبين محاولة الاعتداء منهم عليك .

قال نزيه وهو يحاول أن يصدق ما سمع : هل أعود للقرية وأنا مطمئن ؟!

قال كارلوس نواس مفكرا : لماذا يغتالون المهندس ؟ لم يشتغل معهم يوما ، ولا يعرفونه ؛ لأنه ليس من نفس قريتكم.. هو من قرية قريبة ، لما تزوج الدكتورة بنت بلدتكم رحل إليها وسكن في جمالة .. لم أجد له خصماء إن كان له خصوم.. الشرطة لم تصل للمجرم .

تنهد نزيه وقال : الجريمة مدبرة ومخطط لها يا كارل! .. كلنا أدركنا ذلك من الوهلة الأولى .. لم تجب على سؤالي هل أعود للوطن ؟

قال المحقق على مهل : حاول أحدهم قتلك حقيقة يا نزيه .. ثلاث رصاصات في مكان مهم لنزيه .. بعد صلاة الفجر ، وبقاء بعض العتمة .. والشوارع خالية من السيارات والمارة .. ومطلق الرصاص أخطأ الهدف بسبب العجلة .. فأصاب المهندس بدلا منك .. القاتل يعرف ما يفعل .. فلا أستطيع أن أبث في قلبك السكينة يا نزيه يا ابن يوسف!.. فالذي أراد قتلك، ولم يُعرف بالتأكيد سيعيد الكرة .. لكن لماذا ؟ لا جواب .. الدافع الإجرامي غامض .. ما هي الغاية من قتلك ؟ فقط الكره .. والحقد . . فزوجتك لك عقود هاجرها وشبه مطلقها .. فلماذا تنتقم اليوم ؟! فهي لا تعرف عنك شيئا بعد الرحيل .. وأخوالك لماذا يا صديقي ؟ فأمك

همزة الوصل بينكم ماتت بعد سفرك بسنوات.
ـ قبل الحادث لقد سعوا لإعادتها إلى ذمتي لما أشهرت طلاقي .. ولم يتضح سبب ذلك.. والشفيع لم يعرف السبب ، زعم أن ذلك من أجل خاطر الأولاد الذين لم يقدم أحدهم القرية للسلام عليّ أو حتى يكلف نفسه بالاتصال باستثناء ابنتي منها نداء .. وقالت نداء : لم يفعلوا ذلك عندما لامتهم بأنني تركت تربيتهم لمجرمة

قال كارلوس مبررا : هم خافوا أن يفعل غيرك ببناتهم مثلك يا نزيه ، وتصبح مثالا ونموذجا لمن بعدك .. هم يدافعون عن نظام بنوه من قبل أن تولد .

ـ لقد طلق ابني سامي ابنة ابن كبيرهم شاكر ؛ بل هددوا بموتي اذا لم أتراجع عن الطلاق الرسمي، لا يقبلون الهزيمة ، واعتبرت تهديدهم ساعة غضب .. وأفهمتني الشرطة أن لا يد لهم .. قلنا طيب من ؟.. مثلك سكتوا .. كما أخبرتك .. أنا أعرف عظم نفوذهم في الدولة .. وهذا أحد أسباب تشجعي على قبول الزواج من مارينا طمعا بمنصب إداري كبير مع تقدم الزمن .

قال : فالغضب والكلام خلاله بالتهديد والوعيد والموت وجهة نظر مقبولة لدى الشرطة والبوليس .. بس فليس كل من يهدد يقتل .. يوضع موضع اشتباه فحسب.. الغاضب يكفر ويضرب وقد يقتل ويطلق .

قال نزيه منهيا العقد : غدا نلتقي لأقدم لك أتعابك كلها.. ومصاريف الرحلة انتهى أمرها أم بقي لك في ذمتي شيئا .

ـ لا ؛ بل زاد .

قال : مبارك عليك .. مسامح فيه ..غدا سأسحب من البنك وأسدد الفاتورة.

رجع للشمال حيث الزوجة وابنتها وشريكه عايش ، وكان محتارا في حسم الأمر وممن يريد تعجيل موته ؛ فإذا لم يكن والد زوجته وعمها من يكون ؟! هل أحد أبناء مارينا يسعى لذلك من أجل المال والميراث؟ .. والميراث .. لم يخطر ذلك في بالي .. هل يرغبون بميراثي ويتعجلون

ذلك ؟ فسامي عمله جيد ومحامي ناجح .. وناصر يدير مصلحة ، ويأخذ من أمه .. وميساء أمورها سالكة .. وكلهم فشلوا في الزواج وتكوين أسر .. سامي طلق بنت خاله إسكندر ، وناصر طلق ويمشي على عكاز .. مارينا ماذا تريد من قتلي؟ أتريد الانتقام ؟ نحن عشنا عشر سنوات وآخر ثلاث سنوات منها أغلبها قضيتها في القرية ، ثم هربت لأمريكا اللاتينية مع ابن عم لي ـ رحمه الله ـ خلصني من وجع الرأس .. الأولاد هناك كانوا يحبون بقائي بينهم .. وهذه المرأة عاد بها الحنين لولادة ذكر .. والأمر بيد الله .. وسعيت بإخلاص لمساعدة عريفة على الإنجاب والحمل رغم بلوغي الستين.. الأمر بيد مولاي عز وجل .. الطب يقول: إنها غير صالحة للحمل .



طلب نزيه من عايش شقيق الأرملة عريفة أن يقنع أخته بالكف عن عرض نفسها على الأطباء ، وأن الزواج والحبل بأمر الله وقدره ، وقد رحلوا في أنحاء البلاد وجنوب تركيا دون فائدة حتى يبقيها على ذمته لتعود معه لجمالة ، هذا ما أخذه في قضية عريفة ، وبعد عودة المحقق كارلوس من سلام ولقائهما كما روينا قبل سطور أخذ يخطط للعودة لبلده سلام .. سأل نفسه كثيرا من الأسئلة .. هل يهرب أم يطلق أم يرحل للأرجنتين من جديد ؟ .. هو ترك الغربة ؛ ليختم حياته في جمالة ، ويقصد الديار المقدسة والمساجد الثلاثة للحج ، يريد إقامة ركن الإسلام الخامس .. يريد الحياة في الوطن.. ملّ وشبع من الغربة .. أولاده في سلام نسوه ، ويحق لهم ذلك .. فقد ابتعد عنهم ثلاثين سنة .. وأولاده في الغربة رفضوا العودة ، فتلك الديار ديارهم .

فلما تحدث مع زوجته بما يفكر من العودة لموطنه ، فقالت : لماذا لا نذهب إلى بلاد الكفار ونحاول العلاج عندهم ؟

فابتسم لها قائلا : الطب هنا كما هو هناك .. الطب علم عالمي ؛ ليس خاص بدولة دون الأخرى .. قد تكون التطورات أو التقدم أكثر وأسرع من البلدان العربية ؛ لكسلنا ونومنا الطويل.. فالأدوية الموجودة هناك موجودة عندنا ..والعواقر بالملايين عندهم .. ليس مقصورا فحسب على بلاد العرب أوطاني .. وقد قام عايش بك بجولات شرقا وغرب ؛ لأنني أنا أحب الخلفة أيضا مع أن عندي ثمانية بين ذكر وأنثى .. أربع في بلدي وأربع في بيونس ايرس .. فأنت غير قادرة على الإنجاب .. والسن تقدم بك .. فالرحم شبه ميت .. ولم أبخل عليك بالمال والدراهم .

قالت بصوت واهن وربما فيه حسرة أو خيبة أمل : لا أنكر فضلك يا أبا ناصر ، ولا كرمك معي .. مع ابنتي .. وحتى مع شقيقي الباقي عايش .

قال : الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات .. ماذا أفعل لك ؟ الأمر لله فهو صاحب الأمر.

تنهدت وبكت وقالت : أنا لما ترملت على هدى حزنت كثيرا ، وكانت رغبتي بالزواج من أجل الحمل والولادة .. مولود مثل كل نسوان العالم ، رغبت بمولود ذكر من أجل خاطري وخاطر هدى ، وتزوجت ثانية من أجل هذه الغاية .. ولما عجزت عن ذلك طلقني الرجل .

فقال بعتب : ولماذا قمنا بكل هذه الفحوصات وأنت عاقر ؟ .. هذا تصرف شائن يا عريفة !

هتفت بحزن : الأمل يا سيدي ! الأمل .. وسخاؤك شجعني على المحاولة.. فأنت صاحب مال كما قال عايش وكريم .. الحمد لله أن عندي هدى .

قال بقلبه الكبير : الحمد لله .. اهتمي بها ، وادعو الله أن يحفظها لك ، ويهبها ابن الحلال ، وتلد لك البنين والبنات ، وترين أحفادك .

قالت : إن شاء الله .. سامحني يا سيدي الكريم .. المرأة خلقت ؛ لتكون أما يا نزيه .. وعايش طلب من البداية أن أسلم أمري إلى الله .

قال مشجعا : وهو الأفضل أن نسلم أمرنا في جميع أمورنا إلى الله.. فهو يتولانا بفضله ورحمته

قالت : ما رأيك بالسفر إلى الأرجنتين ؛ لتغيير الجو ونرى أسرتك وأقاربك وتعرفني بهم ؟

ضحك قليلا ورد : ترغبين بالسفر إلى آخر العالم .. فقبل قليل قلنا دعي التفكير بالعلاج .. فهم بلاد ضعيفة مثلنا يحكمهم العسكر والجنرالات ..وطبهم مثل طب بلادنا .. سنسافر إلى بلدي سلام عندما يشاء ربي .. وبعد تخرج هدى نفكر بالأمر .. ولعل زواجها يكون قريبا فابن شقيقك حاطت عينه عليها كما تقولون

قالت بضيق : صحيح .. وهو من أجل ذلك يكثر التردد علينا ؛ لكنها ترفضه ، ولا تريده .. ولمحت لي وله أكثر من مرة أن لا يفكر بها كزوجة .. ولها صديق راغب فيها كزوجة بعد الدراسة .

قال : تريده أكثر من ابن خالها .. وعايش يعرف ذلك.

قالت بفتور : قلت له ذلك .. وجلال ابنه عنده أمل أنها ستغير رأيها عندما يبتعد عنها رفيقها في الجامعة .. وستجده أمامها .. فهو مصر .. والأمر دائما لله يا أبا ناصر

ـ الله يستر يا عريفة!

قالت : لا تخشى شيئا .. أنا كنت أرغب بابن خالتي نبيلة ؛ ولكن قبل زواجنا مات ، فتزوجت والد هدى الأستاذ عبد الحميد .. ولدت قبلها أنثى ماتت طفلة ، ثم جاءت هدى ، ثم لحق بابنته .. وبعد سنوات زوجوني من آخر .. وتبين أني غير قادرة على الحبل .. فبعد علاج فاشل حصل الفراق إلى أن يسرك الله من سنة زمان بعد ترمل أكثر من عشرين سنة .

قال : لم يتقدم إليك خلالها أحد .

قالت : النصيب يحكم .. تقدم الكثير ؛ولكن لم يحصل أي نصيب .. كلهم يرغب بالذرية .. وليس المتعة والمعاشرة فحسب .. أنت الوحيد الذي يريد زوجة والحلال .

قال : نعم يا عريفة ! أريد زوجة والحلال لم أعرف طول العمر بفضل الله طريق الزنا والفواحش .. وأمر الذرية أحببته ؛ ولكني سلمته لربي سبحانه وتعالى يا أم هدى!

****

هدى عبد الحميد ابنة السيدة عريفة لما نكحت أمها زوجها الثالث نزيه يوسف كانت تتعلم في الجامعة في المستوى الثالث ، وكان خالها عايش هو الذي يتولى الإنفاق والمصروف عليهما لفقر أمها وإحسانا عليهما . ولما التقى به زياد السائق وحدثه عن نزيه الشيخ وأنه يرغب بالزواج من امرأة أرملة أو مطلقة حدثه عن أخته ، وحصل النصيب المقدر ، وكان عايش ينفق عليها لتعيل أمها في المستقبل اذا بقيا على قيد الحياة .

كان ولده جلال يرغب بها حليلة ، وتخيل وتصور أن انفاق والده عليها سيدفعها للقبول به زوجا ؛ لترد على الأقل الجميل كما يقال ، وجلال يعمل مع أبيه في تربية المواشي ، ولا يحمل أي شهادة علمية ، واعتبر ذلك مقايضة ، ولم أحست البنت بذلك ، وضحت له أن لا يحلم بها قرينة ، وأن هواها مع زميل معها في الجامعة ؛ لكن الشاب جلال مقتنع أن ما بعد الجامعة يتغير ، وأنه أكبر منها سنا ، وذاك من جيلها.

أحبت الفتاة ابن الجامعة محي الدين العبد ، وأنه أفضل وأنسب من ابن الخال ، وكانوا يرون

الفصل بعد التخرج ، وأمها صارحت شقيقها بموقف البنت ، ولا يضيع جلال عمره في الانتظار ، ولا يزعل من فشلها بإقناع هدى بالزواج منه.

فقال جلال : يا عمتي حب الجامعة حب فارغ ، ولا يثمر .. ونهايته الفشل والضياع .. ولا أدري لماذا أنت صامتة على هذا العبث يا عمة ؟!

قالت معتذرة ومجيبة : بنات اليوم يا ابن أخي لسن كبنات زمان !.. اليوم الشبان أمامها كثر .. ولا غنى لنا عن تعليم البنات.. صار التعليم الجامعي خطوة لطلب يد البنات والوظيفة .. أيام زمان تغيرت وولت .

فقال بحزن : الصبر طيب .. بعد التخرج يكون للقصة بقية .. فلتحب من تشاء.. وأنا يمكنني الزواج في أي حين .. لقد أحبت شابا قبله ، ولما رأى حشمتها وزيها وتمنعها تركها .. هؤلاء يرغبون بالشهوات الحرام .. ولولا تربيتها الجيدة من قبلك لذهبت في درب الإثم والخنا والحرام .. ربنا يستر عليها .

قالت : أنا لا أريد أن أخسر والدك .. فلم يبق من ذرية أبينا إلا أنا وهو .

قال : أولاد أعمامنا موجودون .. وأبناء أخواتك

قالت : أنا أقول عن ذرية أبي .

****

قالت الفتاة لجلال بحدة : أنت لن تكون زوجي يا جلال ! لن يكون زواجنا مفيدا للعائلة .. لم أشعر بأنني سأكون زوجة لك.

قال : أنا أشعر بذلك يا هدى ! ستكونين زوجتي يوما ما .. ولن أتزوجك رغما عنك كما نرى في الأفلام والمسلسلات السيئة الذكر .. أنا كما تعلمين ورددنا مرارا من سنين صارحتك برغبتي الاقتران بك.. والتخرج على الأبواب .. وسيقع حبك لي مع الزمن .

قالت بسخط وعصبية :لا تريد أن تفهم !.. أي زمن يا جلال ! هل لأن والدك ينفق عليّ أصبحت زوجتك .. دعني وشأني يا ابن خالي .

قيل هذا قديما ، وهذا الوضع تغير ، جاء نزيه الزوج الغني ، وأنفق على الفتاة بسخاء واضح ؛ كأنها ابنة صلبية ، وزادت تجارة عايش تجارة الغنم والصوف والأعلاف بالتمويل الذي قدمه نزيه . عارضت هدى في البداية نكاح أمها مرة ثالثة ، وذكرتها بزواجها الثاني والطلاق.

فقالت : هذا حال الدنيا يا هدى! .. وأخي خالك يريد ذلك .. والرجل غريب عن المدينة ، فهو من بلدة سلام .. ونخفف من العبء عن كاهل خالك .. والرجل سيساعد خالك في عمله .. ويساعدك لإنهاء هذا العام .. والرجل سيشارك خالك في شغله وتجارته.. والزواج شرعة الله يا حبيبتي .. وعسى أن أطعم بشقيق لك.. وأنت تعلمين أن أباك لم يترك لنا شيئا إلا هذا البيت ، ولنا فيه شركاء بحكم الورثة لو فارقناه باعوه ثاني يوم ؛ بل الرجل كما قال أخي سيدفع لنا أجرة رغم أنه بيتي وينفق عليك حتى تتخرجي وتتزوجي ابن الحلال.

حصل الزواج كما تعلمون ، وأحب نزيه دفع الأجرة ، ولا يعيش على إحسان الزوجة في بضع دنانير أو ليرات كما يتعامل السوريون . ولما فشل كارلوس في مهمته البوليسية فكر بالعودة إلى جمالة مسقط رأسه ، ويعيش حياته آملا بالسلام والأمان .

أنهت هدى الجامعة تحمل شهادة لتدريس اللغة الفرنسية لغة المستعمر لشمال سوريا الكبرى ، ووجدت فرصة عمل في العاصمة في إحدى الصحف الأجنبية .

أبدى الخال والأم الامتعاض والاعتراض على بداية العمل خارج المحافظة ، ولما تحدثوا عن الزواج ، فأخبرتهم أن صديقها تخلى عن الزواج قبل التخرج بشهور ، ولا ترغب بابن خالها ، وأما نزيه فقال : الأفضل أن يكون الزواج برضى الطرفين .. واليوم لا داعي للضغوط والإجبار ، وعلى جلال أن يقترن بغيرها .. وأنا سأتحدث معه . . فهدى أخبرتني بذلك ، وأعلمتني بترك صديقها الزواج منها قبل تأمين مستقبله في سوق العمل .

وسافرت هدى للعمل في العاصمة ، والتحقت فعلا في الجريدة الأجنبية التي تكتب للأجانب في البلد العربي السوري باللسان الفرنسي . ومضت السنوات الثلاثة في سوريا ، وحسم الأمر .. وحان زمن العودة للقرية والتوكل على الله ، وأخبر عايش بالأمر ، ولما يستقر في جمالة

سيبعث لأخذ زوجته عريفة ، وأنه ترك وتنازل له عن أموال الشراكة .

ولما نزل الشام التقى بهدى في شقتها المستأجرة ، وودعها وأعطاها بعض المال ، وسافر جوا إلى مدينة سلام ؛ لعله يلقى فيها السلام والإكرام ، وكان قد اتصل بأبيه وأخبره بقرار العودة لمدينة السلام . تفاجأ أهل البلدة بعودته ، كما تفاجأوا باختفائه ، ورحبوا به بحرارة ؛ كأنه ميت وعاد للدنيا من جديد ، وعلمت الصحف المحلية بالعودة ، ونشرت الخبر في ثنايا السطور والصفحات ، وتبين لهم أن الخطف والقتل إشاعات وأباطيل .

****

لما استقر في البلد اتصل بأخ عريفة وطلب منه المجيء بأخته لجمالة حيث يعيش ، وطار بها عايش لسلام ، وصحب زوجته معه ، ورحبت بهم عائلة يوسف الجمالي خير ترحيب ، وقدمت لهم أفضل الضيافة وقدم عايش وزوجته الشكر الجزيل ، وتمنى له السعادة والحياة الطيبة برفقة وصحبة أخته.

وكان يهمس لأخته : هذا بيتك وقصرك الجميل .. وزوجك السخي الطيب وأهله الكرام .. حافظي على هذه النعمة .. واشكري العالي في علاه .. واعلمي أن سبب مجيئه بلادنا مشاكله مع أخواله ووالد زوجته المطلقة .. فاحرسيه قدر طاقك .. فالرجل كما حدث تعرض لغدر من مجهول ، ولم يعرف رغم مرور هذه السنين.

قالت : لم أكن أظن أنه سيد .. فأخوه الأكبر قاضي كبير في البلد ..وأخواله من كبار وعلية القوم .. كان أحدهم وزيرا .. وإخوته أصبحوا في مراكز متقدمة في البلد .

قال : لكنه أغناهم يا عريفة كما حدثني والده الشيخ .. فقد وفق كثيرا في هجرته لبلاد أمريكا .. ودفع بسخاء لعلاجك ولابنتك.. فقد كان سيدا كريما بحق .

قالت : نعم ، كان يتحدث عن أملاكه وأولاده في تلك البلاد البعيدة ، وأن زوجته أم جعفر من أصل سوري مثلي أنا.. وتحدث عن ضعف العلاقة بينه وبين أولاده من ابنة خاله باكر هنا .. وابنته الصغيرة نداء امرأة محترمة وفاضلة رحبت بي وتمنت لي التوفيق في الحياة مع أبيها ..

أسأل الله أن يحفظه من يد الغدر .. وقد قام صهره بتشييد مصنع دواء كبير في طرف البلدة يتكلم عنه البشر فهم فيه شركاء .

قال: صحيح والفضل لله سبحانه ، وهو موفق .. وسوف يشرع ببناء مسجد عن روح الشاب الذي قتل غدرا نيابة عنه .. وتعهد لزوجته الطبيبة التي تعمل في المركز الطبي بتعليم ابنها وابنتها على نفقته عندما يدخلان الجامعة رغم أن زوجها الثاني رفض ذلك التعهد فالطفل ابنه .. هكذا المفروض أن يكون من يملك .. هل يأخذ الإنسان عند الدفن شيئا ؟!

قالت بصوت منخفض : هل زال الخطر عنه يا عايش ؟

ـ لا أحد يدري .. انتبهي لمن يزوره .. من يرقب البيت ؟ هو وضع ثقته الكاملة بمولاه عز وجل .. ولا يرغب بالعودة لبلاد الأجانب .

ـ الأمر لصاحب الأمر يا سيدي !

قال : نعم ، الأمر لله .. خذي بالك .. وعليك برعايته ؛ لتدوم العشرة ، ولا تعودي لموضوع الخلفة والحمل .. أنا مسافر للبلد غدا أو بعده.

ـ والبنت !

قال لطمأنتها على هدى : البنت ـ يا عريفة ـ ليست بحاجة لك.. فهي تعيش في الشام وحدها منذ شهور .. بنات اليوم لهن طباع الرجال ؛ ربما تسعد برحيلك إلى جمالة .. وقد قل مجيئها إليك بسبب الشغل .. ولعلها تجد ابن الحلال .. وجلال يئس وتزوج بنت أختنا .. فماذا تفعلين لها ؟ والتلفون بينكم موجود .. اليوم الذكر لا يستطيع إجبار امرأته على أمر .. فكيف بابنة الجامعة؟ والطنطنة حول حرية المرأة وحق الإنسان شمخ بأنوفهن للسماء ؟ فكيف بابنته يا عريفة ؟!.. نقول الله يستر عليها .. اشغلي بالك في نزيه

قالت : أمين أمين .. أسأل الله أن يكون قريبا ؛ لارتاح من همها يا عايش .. عاشت يتيمة كما تخبر.

قال مواسيا : كلنا أيتام .. كنت قلقا وخائفا من غضب نزيه عليك أيام فترة المعالجة من العقم

.. خفت أن يثور ، وقد ارتحت له وأحبه قلبي ، والمحبة من الله.

قالت : الأمل يا أخي الأمل وكرمه .. والطب يوميا يتقدم كما يزعم كل حكيم قابلناه وتعالجنا عنده .

قال : هو يتحدث عن الحج ؛ ربما يذهب بك للحج معه .. الناس تحب أن تختم كبرها برحلة البيت العتيق والمدينة فتصبحين الحاجة عريفة.

قالت : إن شاء الله .. الله كريم .. أشكرك أنت وزوجتك يا ابن أمي وأبي.. واذا باع البيت الورثة سأتنازل عن حصتي لك .

قال : قد أؤجره ..فهو لن يباع في ساعات.. حتى أتأكد من ثباتك على ذمة زوجك .. فالغربة مرة ؛ ربما تشعرين بالوحشة بعد حين .



كان نزيه يوسف يدرك أن عدوه الخفي الذي فشل في صيده والغدر به سيكرر فعلته رغم خروجه لمدة ثلاث سنوات قضاها في شمال سوريا سيحاول مرة أخرى ؛ فكان يقول لأبيه الشيخ : أحس أنني متبوع ومراقب .. ففي المسجد رجل غريب ومريب .. أنا أعلم عظم حقد مارينا عليّ قبل سفري القديم .. خشيت أن تضع لي سما في طعامي في ساعة جنون .. وكذلك والدها ، وأنه هو وراء الجريمة إحساس لا يفارقني .. هم أرسلوا القاتل المستأجر .. أنا عشت قريبا منهم يا أبي.. كان باكر شرسا حقودا منتقما مخيفا ، وكذلك شاكر ولكنهم خاليّ .. كانوا لا يسمحون لأحد أن ينال منهم ..كان موظفو شركاتهم مرتعبين منهم .. ومن انتقامهم ، لا يسامحون المخطئ البتة.

قال الشيخ وهو يعود لستين سنة للوراء : أنا أعرف أخوالك الأربعة وأبناء عمهم حق المعرفة قبل أن تولد يا نزيه .. لقد رأيت وعرفت عنفهم هنا قبل أن يرحلوا للمدينة .. ويرتاح الناس منهم ومن شرورهم .. وأنا تزوجت أمك أختهم ـ رحمها الله ـ لمصاهرات قديمة بين عائلتينا ولظروف معينة ، ولكف شرهم عن أبي المسكين الذي ضغط عليّ لمصاهرتهم ولديون تراكمت عليه لوالدهم ووالده .. وكان بينهم عمل خفي شعرت به لما تزوجت أمك ؛ لكني لم أعرف تفاصيله ولم أفهمه حتى زوجتي أمك لا تعرفه .. المهم أن أبي تورط معهم في تهريب مخدرات أو سلاح بسيارته .. ومات بظروف مريبة يا نزيه.. ولم تعرف التفاصيل .. مرض ثم مات قبل أي علاج ناجع .. ولكنك لما سكنت المدينة هويتهم واستلطفت الفتاة .. أنا سعيت لإنقاذك سريعا وبطريقة أدبية ..ولكن كان هواك معهم ، وترى المستقبل معهم .. فقلت الناس تتغير .. فهم يرسمون ويدبرون لاختيار أزواج بناتهم وأخواتهم .. والناس تريد المال والشهوات .. أنت كررت حادث أبي ، صحبهم حتى زوجوني أمك بظروف غير ظروفك بالتأكيد ؛ وربما مات أبونا مخنوقا ، لم يكن مرضه خطيرا كما قال طبيب القرية .. لم يكن معه أحد تلك الليلة إلا جدتك الضعيفة السمع والبصر ، ولم تسمع حسا وصوتا ،ولم تر شيئا حتى

وقع الموت .. ولم يعرض الوالد ـ رحمه الله ـ على الطبيب الشرعي قالوا وفاة طبيعية.. لم يخطر على بالنا القتل تلك الأيام .. ولم تعش أمي بعده كثيرا .. وماذا ستفعل أمام إحساسك المرعب مع ما قيل وقال عن موته ؟

قال نزيه : كنت أطمع أن أصير مثلهم ثريا من رجال الحكم. صمت لحظات ، وعاد يقول : لا داعي لنبش الماضي ، نكنت معجبا بهم وقوتهم .. صممت أن أعمل كمينا ؛ فإما أن أقتل أو أنجو .

ـ ولماذا لا تذهب إلى الأرجنتين ؟فلك أسرة وتخلص من الخوف من المجهول!

ـ وعريفة ؟

قال : تأخذها معك .

فكر قليلا وقال : هذا ليس حلا عدت لادفن هنا يا أبي !.. عمها كان يرفض الطلاق بشدة ؛ كأنني متزوج ابنته هو .. حتى لا أشجع غيري على فتح هذا الباب بزعمه .. ففرت إليكم تجنبا للمشاكل .. وابني سامي طلق ابنة ابنه إسكندر وصمت.. تشاطر عليّ فقط.

ـ ظرفك كان قبل ثلاثين سنة يا نزيه ! ولا تنسى أنه هو الذي جاءني ليمنع زواجك من ابنة قديس شريكي رحمه الله وغفر له ..فهو الذي زوجك بنفسه .. على كل ما هو الكمين الذي تفكر فيه؟

قال صافنا : الكمين أن رجلا كما قلت سكن حديثا في البلدة ، ويصلي في مسجدنا ، وشعرت أنه جاء لأمر خفي .. فسألت عنه فقيل سكن من أيام رغم زعمه التدين والفقر والمسكنة .

ـ يستغل الدين للجريمة .

قال : المراقبة فقط ..للأسف مثله كثير .. يستغلون لمثل هذه الأعمال القذرة من التلصص والتجسس.

قال يوسف : ألا ترى أن خوفك وقلقك جعلك تفكر بذلك وتشك في الرجل ؟!

رد نزيه : الكمين سيكشف ذلك .. أراه يتابعني بعينيه في المسجد بحقد ومكر.

الرجل قلق على حياته ، وهو يعلم قوة حقد مطلقته عليه وتهديداتها بقصف حياته أثناء فترة زعلهما الأولى ، عندما كشف مرضها الجنسي ، وتلويحه بالزواج ، لم يتقبلوا الزواج عليها ؛ فكانت أشدهم سخطا وحمقا ا، وقد دمرت أولاده دون شفقة وعطف ، وتذكر كيف أجبروه على الزواج منها ؟ رغم رفض والده للزواج من بناتهم ، وسعى لتزويجه من ابنة صديقه قديس وصمتت أمه أمام ضغطهم ، وحدثته عن المستقبل أمامه بتقوية علاقته بخاليه .

وقال له أبوه مستسلما : تزوج .. أطعهم يا نزيه ! هم أخوالك تزوج كما تزوجت أمك .. نحن أهل وأقارب .

لما كبر عرف معنى هذه الجملة بشكل جيد ، فهجرته أنجته من مضايقتهم وحقدهم وبغضهم لهذا الخوف الذي تجمع في بدنه هرب سرا وخفية خشية الإيذاء البدني والعدوان ، كان يخافهم ومرعوبا منهم ومن تهديداتهم ، لم يعلم أن جده قد يكون مات خنقا وجناية ، الوالد لم يصرح بذلك إلا له ؛ فكان لديه شك كبير باغتيال أبيه ، فالذي يقتل مرة وينجو يفعل ذلك ثانية، بالتأكيد لم يفعل ذلك شاكر أو باكر .. قد يكون والده مخطئا في ظنه ، لكن أحاطت بجده ظروف سيئة جعلت أبي يشك ويظن .. ألم يتعرض هو لإطلاق النار أدت إلى موت المهندس خالد ؟.. الخال لا يقتل بيده ، يقتل بماله ونفوذه .. الشرطة لم تجد أدلة ملموسة على الجريمة ، لا تريد أدلة ظرفية يسهل إنكارها.

لما قرر نزيه العودة لجمالة كلف جعفر بإرسال سيارة مصفحة ضد الرصاص ، ومثل هذه السيارات منتشرة في القارة الجنوبية لسطوة وعنف عصابات المخدرات ، ووصلت بعد مجيئه بزمن يسير ، وأصبح يتنقل بها للمسجد والسوق والأعمال ، ولم يعد يمشي على القدم .. كانت هذه الوسيلة توفر الأمان بعض الأمان .

لما علم بمجيء الرجل للحي حديثا ، وتردده على مسجد الحي أو المجاور بعد عودته من الشام اشتغل به ، وظنه جاسوسا من قبل أخواله ومطلقته . ولما سئل الرجل عن سبب سكنه البلدة ، ادعى أنه يعمل في مشغل على طرف القرية بينها وبين قرية أخرى ، وهو يعمل في

تصليح الآلات المنزلية كالغسالات والمكانس الكهربائية وما شابهها ، والمحل تبين أنه قديم ، وفيه قريب للرجل الغريب ، وتشارك معه من زمن قريب ، فارتبك نزيه لما علم هذه المعلومات ، وكان كثرة اختلاسه النظر إليه شغله وأربكه ، وتبين أنهما قريبان يعملان في نفس الحرفة ، وأنه يعمل بيده كفني ، وأن نظره إليه مجرد فضول ، لما سمع من بعض المصلين أن هذا الرجل كاد أن يقتل على باب المسجد ، وقد قتل شاب بدلا منه ، فهو لا يستطيع قتل نملة، فكيف يقتل إنسانا خفية ويهرب ؟ فلم يبدو لنزيه بعد ذلك أنه عين لأخواله ، كان رجلا بسيطا ، فنزيه يعلم أن لأسرة أخواله علاقات جيدة مع أجهزة الأمن شرطة استخبارات ، فقد عاش بينهم عشرة أعوام ، ورأى قوتهم وعلاقاتهم ،وكيف يحلون مشاكلهم وقضاياهم مع الآخرين ، وكيف كان يعامل في وزارته ، فهو ابن أخت الوزير شاكر ، وحماه باكر ، فهم رجال مال وأعمال ، فكانوا يشكلون قوة اقتصادية في المدينة ، واليوم زادت وكثرت العائلات القوية والأسر الأخرى بزيادة عدد سكان المدينة ، وزادت المنافسات والمصالح بينهم على النفوذ والسوق والمال . كان نزيه يعلم قوتهم ومصاهراتهم وانحلالهم خاصة أبناؤهم وأحفادهم اليوم .. اعتقد نزيه أن خصوماته معهم انتهت بسفره إلى الأرجنتين ، وثانيا بفشل محاولة قتله ، وأصبحوا تحت عين الأمن ، وهو يرى نفسه أنه لا يقل عنهم ذكاء وفطنة ، وقد نجح نجاحا كبيرا في الأرجنتين ؛ ولكن لهم قوة في الأمن .

اختفى رجل المسجد رجل تصليح الآلات المنزلية ، وهل أدرك أن الناس يشكون بأنه عميل لأهل سلام أم أن الرجل شعر بضيق وعيون الناس ترنو إليه ؟ هل نقل إليه أحدهم قلق نزيه منه ؟ ربما .. فكما ظهر فجأة اختفى فجأة ، رحل قبل عمل الكمين ، وترجح لدى نزيه أن لا علاقة له بأخواله ؛ إنما تصادف سكنه برجعته ، وتوقف الكمين الذي كان يفكر بعمله .

وبينما هو في هذه الحيرة والارتباك ، اتصل به ولده ناصر دون إشارات ومقدمات ، وأنه أخذ رقم منزله من شقيقته الصغيرة نداء . وقال بعد التحية والتعريف بشخصه : أعرف أنك أبي .. وأنك هربت من أمي.. فلا داعي للعتب والاعتذار لا منا ولا منك .

وكان الاتصال دون تمهيد ، وطلب منه اللقاء لأمر خاص ، فرحب نزيه باللقاء الخاص وسعى أن يكون اللقاء في البلدة ، فمن القلق والخوف همس لنفسه : هل هو شريك معهم رغبة بالميراث ؟ فهو ضعيف الحال كما فهمت من نداء الغالية ؛ ولكنها تقول إن علاقته بأمه وأهلها في غاية السوء ..كلها مشاحنات ومشاكسات .. وهمس : هل يستدرجونه للمدينة ؟
وكان اللقاء في القرية كما رغب ، وجاء ناصر بسيارة أجرة ، وجلسا في بيت أبيه يوسف وبعد الضيافة ، قال ناصر : أنا لا أزعم حبك .. فقد تعودنا على بعدك وغبيتك .. ولا أزعم الشوق إليك .. أنت بالنسبة لي مجرد أب .. قضى شهوته ممن هي أمي فجاء ناصر.. ولا انكر أفضالك على الإنفاق عليّ وعلى إخوتي وتدريسهم وعلاجي .. ولا أعتب عليك تركنا عند ممن تسمى أمنا .. وليس لي دين وأي مبدأ.. فأخوالي وأخوالك أعداء وخصوم لك .. وكرههم وبغضهم لك انتقل إلينا .. وحقدهم عليك وعلينا .. وربما وسوس لك الشيطان برغبتنا بقتلك من أجل المال ؛ كما لمحت بعض الصحف المجرمة .. صراع عائلي كاد يؤدي بمقتل نزيه يوسف رجل الأعمال القادم من الأرجنتين .. فأنا جئت إليكم رسولا منهم أحمل رسالة .. هم يعلمون أنك أرسلت لهم ضابطا غبيا عاش في وسطهم ؛ ليعرف دورهم في محاولة القتل .. الرجل الشامي الفاشل .. كما يقول خالك شاكر .. هم يرغبون في الصلح وإنهاء الإشكال والقيل والقال.
قال : الصلح ! أي صلح يا ولدي .. هم أعلنوا للبوليس أنهم أبرياء من دم المهندس خالد .. ولا يد لهم في مصرعه ، فهل سيدفعون الدية ؟
قال : لن يدفعوا دية ، ولا يؤمنوا بها .. أنت تعلم يقينا أننا لا دين لنا .. ولن يقروا بجريمة أنكروا فعلها قبل سنوات .. هم يريدون صلحا حتى لا تبقى الجرائد الحاقدة تتكلم في القضية وأن السيد امتلك سيارة مصفحة ناقلة جند يتحرك بها خشية الغدر به .. وهربك القديم والجديد.. يريدون فتح صفحة بيضاء .. لكم دينكم ولي دين .. أدركوا أن أمرهم مكشوف .. وأنك لو قتلت سيتهمون بدمك .. وأنك ربما تفكر بالانتقام .. ومن هي أمي كما تزعم فهي

على وشك النهاية .. فيها علل كثيرة سوى أمراض الزمن.. أمراض الكحول والفحش .. فهي بعدك أصبحت عشيقة كل الرجال .. تنتقم منك بفعل القبح والفحش لا أدري كيف هذا الانتقام ؟! لا يمر علينا يوم ، ولا يدخل طبيب المنزل لمعاينتها وكتب روشته طبية ، ويعيب على وصفات من سبقه .

تنهد نزيه أسفا وقال بكره بين : هي لا تعرف شرفا ولا عفة.. همها القمار والتبرج والسفور وبعض المخدرات .

قال : أنت أعرف بها منا .

فقال : وكيف يكون الصلح يا ناصر الذي سمحت لنفسك أن تكون فيه رسولا ووسيطا ؟ ! ومن يكفله ؟ ودم القتيل غيلة ...

قال ببرود : إن الإجابات والقصة القديمة لا أعرف عنها شيئا واضحا .. أنت كما علمنا شككت في جدي باكر وشاكر .. وأنا شككت في أمي التي كانت زوجة لك .. نفت أي علاقة لها في الجريمة .. وإنك بعيد عنها من عهد بعيد .. فلماذا تقتل اليوم ؟ .. وكما أحبتك شابا كرهتك وبغضتك كهلا وشيخا .

تنهد ثانية وقال : اذا لم يكونوا هم من يكون يا ناصر ؟ كيف الصلح ؟ ومع من ؟

قال : مع جدي الذي كلفني باللقاء بك وشقيقه اللعين .. آه كم أكرههم !.. أنا لا أحبهم .. ولكني اليوم عالة عليهم .

قال : أبهم قوة ومورة ؟

قال : بيتنا ميت ، وهما ميتان ؛ لكن عقلهما ما زال يمكر .. عقل مجرم .. ما زالا يديران الأعمال والمال ويسيطران على كل أفراد الأسر .

ـ وأنت ألم تفكر بالعودة للدين والحياة الهادئة والزواج ؟

قال : حياتي هادئة إلا اذا اعتبرت الشراب والبغاء ضد الحياة الهادئة.

قال بشفقة واضحة : الشراب الذي احترفته هو الذي حطمك.. ألم يكن هو سبب ما حل بك

وبأمك كما قلت قبل دقائق ؟ .. والبغاء يجعل من الرجل حيوانا فحسب يتنقل من نعجة إلى أخرى .. الحيوان الذكر وظيفته النزو على الإناث والطعام .. الحياة في هذه البلدة هادئة جدا يا ناصر .. أنت ماذا تعمل اليوم؟ قالت نداء : إنك لا تعمل منذ الشلل الجزئي الذي أصابك ، وتعتمد على جيب أمك ، وكلفت أحدهم بالشغل في محطة التصليح ، وإنك لا تستفيد منها شيئا ؛ إنما وسيلة للخروج من البيت، وإنك تشتغل كباقي الناس .

قال : جيب أمي ممتلئة ! أليست هي التي علمتني الشراب والنساء؟ .. أمي جيبها كان ينفق بإسراف وجنون على مجونها ومكياجها وسفورها.. أنا أتاجر بالسيارات المستعملة أيضا .

قال : ارحل هنا ، وسأعمل لك أحسن مصلحة ، وراتب شهري ، ونجد لك زوجة.

قال : أعلم أنك رجل طيب وسخي وثري .. ماذا أقول لعم مارينا العجوز ؟

ـ دم الميت القتيل لم يبرد.. ماذا قالوا بخصوصه ؟

ـ اذا صح ظنك لن يعترفوا بالفاعل والمدبر يا سيد نزيه!

قال : يا ولدي الدم في رقبتنا .. أنا صحيح قدمت للأرملة ووالديه مالا .. وهم يعلمون أن المقصود بالاغتيال نزيه .

قال : ماذا أقول لهم ؟

ـ أين اللقاء؟

قال : أنت أين تحب؟

قال باسما : هنا .. أتراهم يقبلون ؟

قال : ولم لا يقبلون ؟! هي بلدهم ، وما زال لهم أملاك فيها .

قال : رتب الأمر .. فأنا ليس لي عدو سواهم.. أنا ظننت أن حقدهم همد وبرد منذ مغادرتي أرض سلام .

قال بحقد وغيظ : هؤلاء عيلة لا ينام حقدهم وبغضهم إلا بزوال الخصم .. تعودوا على الظلم وسحق خصومهم .. فرغم كبر سنهم عندما تذكر أمامهم يفقدوا الصواب ..

ويندهش السامعون لشماتتهم وبغضهم ، وأولادهم أسوا منهم حتى الأحفاد ورثوا كبرهم وحسدهم .. نحن من عاش في حضنهم .. قضيت عمري في النزاع والشتائم معهم ؛ لكنهم أقاربنا وأخوالنا .. إنهم في ضيق .. يبدو أن الشرطة لما عدت حذرتهم من المساس بك.. فالشك منطقا متجه إليهم .. واليوم شقيقك إبراهيم عمي رجل كبير في الدولة .. وكذلك ابنه القاضي أيضا .. فاللعب ليس لصالحهم .. فلذلك يريدان أن يظهر الصلح أمام الناس ، وتكتب عنه الصحف .

ـ التقيت بعمك؟

ـ مرات بسبب الكثير من القضايا المالية والأخلاقية .. وساعدني في قضية مالية ، ودفع أتعاب المحامي.

****

ذهب نزيه وشقيقه الأكبر إبراهيم وابن أبيهم نزار وثلاثة من أبناء عمومتهم إلى فندق ذي نجوم خمسة في مدينة سلام في قلب المدينة الزاهرة للقاء أخوالهم لإجراء مصالحة تاريخية وعهد بينهم ؛ ليعيش الكل في سلام . حضر من الفريق الثاني باكر وشاكر وابن لهم وبعض الأحفاد ، وكانت امرأة كبيرة بينهم هي سكرتيرة قديمة للسيد شاكر .

كان اللقاء في صالة من صالات الطعام في الفندق ، والتفوا حول طاولة كبيرة أعدت للقاء ـ فهذا الفندق ملك لهما ـ فبعد الترحيب والتذكير بالقرابة والخؤولة قال شاكر : نحن بيننا صلة قرابة تجمعنا .. وأمكم يا حضرة القاضي أختنا وابنة أبينا ـ رحمهم الله ـ وبيننا مصاهرات قديمة وحديثة .. وسامي ابن أخيك تزوج ابنة ابني ؛ كما تزوج أخوك ابنة أخي .. ونحن قبل ذلك أبناء قرية واحدة ، وهي بلدتنا ، وإن تركناها .. ولم يبق لنا فيها الكثير من الأملاك والأراضي.. ونحن هجرناها بداية شبابنا.. وكانت بلدة صغيرة .. فطاب لوالدنا العيش في المدينة لخدمته في الجيش ، ووصل لرتبة عالية كما تعلمون ، ثم رحلت بعد استقراره في المدينة باقي أفراد الأسرة كلها .. أقصد فرعنا نحن .. والله أعطانا .. وصرنا على ما نحن فيه .. ولا

داعي للخوض في تفاصيله.. ووفقنا في التجارة والصناعة بعد بيع الكثير من أملاكنا في القرية .. وقدر لنا الوصول لمنازل مهمة في الدولة .. وتزوجت أختنا من أبيكم الشيخ يوسف.. فنحن أخوالكم رغم أنوفكم ..ولم نكن نقصر في مساعدتكم بالتعلم والعمل في المدينة إلى أن جاء السيد نزيه المدينة ، وتعمقت علاقتنا به على غير ميعاد .. وهو ابن أختنا ، وكان محبا لنا ومعجبا ومتعاونا ، ولم ينتقد طباعنا وعاداتنا التي تختلف عن طباع وعادات القرية .. وكان بينه وبين ابنة أخي استلطاف منذ حل في منازلنا ، وأحبه باكر ورآه مناسبا ومقبولا لابنته .. لا نريد أن نقول حبا وغراما .. وهو يومها كان شابا ذكيا .. وكنا نرى له مستقبلا واعدا في الدولة والوظيفة العمومية ..وبمساعدتنا قلنا سيصل لهدفه .. فرأينا أن نزوجهما لامتداد الصلة بيننا وبين أختنا وبين عائلتكم .. ولم يعترض.. ولما هم والدكم يوسف بتزويجه اضطررت للضغط عليه وتزويجه من مارينا لما بينهم من استلطاف وحضوره بعض حفلاتنا ، وقبوله دعواتها وسهراتها ، واعتذر أبوكم من صديقه في القرية ، وتزوج نزيه من مارينا ، وعاشوا في انسجام ووظيفة جيدة ، وكما هو معروف رواتب الحكومة ليست كرواتب المؤسسات الخاصة .. ونحن كن نرسم له مستقبلا مهما مع تقدم العمر .. ابن أختنا وزوج ابنة أخي ..هذا كله تعرفونه أيها السادة ، ثم حدث بعد ولادة صغرى بنات مارينا باكر مرضا عجزت على إثره مارينا من الولادة مع أن أربعة مواليد كفاية في مثل هذا الزمن.. والأخطر المرض الجنسي وصعوبة الممارسة الجنسية كما تعلمون ..ولم يفلح العلاج ..وعانى نزيه .. وهو نظيف لم ير بجواز الاتصال بالنساء عن غير الزواج كما يفعل غيره .. فأخذ يفكر مبكرا بالزواج على مارينا .. وكانت مارينا ترفض بشدة .. وكذلك والدها وأنا .. فهذا أمر محذوف في قانوننا .. فرأى الطلاق ، وهذا رفضناه ذاك الزمن ؛ لأنه إساءة لنا قبل مارينا .. فمنذ رحلنا للمدينة حرمنا التعدد والطلاق .. ونزيه يعلم هذه المبادئ لمعايشته معنا .. وصبر قليلا .. ثم هرب إلى الأرجنتين كما خبرنا بعد حين .. وخف نزيف الدم عن مارينا ، لم تتعافى تماما رغم إرسالها للعلاج في فرنسا .. صحيح نحن قمنا بتهديده وتخويفه من الزواج عليها . . ومنعه من

الطلاق ، ورغبناه عندما هاجر للقرية أن يعود لها ولأولاده الأطفال ؛ لكنه فضل الهرب ، ثم علمنا بزواجه ، ولم تصل ورقة الطلاق ، فتركنا الأمر .. وظلت مارينا في نظرنا زوجة زوجها مهاجر .. وهذا موجود في واقع الناس .. ولما عاد كما تعلمون أول فعل فعله أشهر طلاقه زاعما أنه طلقها في الأرجنتين حتى تسمح له المحكمة بالزواج ؛ ليتزوج من جديد .. وتعرض كما يقال لمحاولة اغتيال .. وشكت الشرطة بأننا وراءها حتى سألتنا الشرطة على استحياء .. وبيّنّا لهم بعدنا عن الجريمة ..وصدقونا ؛ لأنه ليس لديهم شاهد أو دليل .. مجرد شك .. ولكن هناك جريمة .. هناك رجل محترم قتل .. فاتهام نزيه مجرد وهم .. والشرطة كما طلبت أنا منهم أن يتحروا جيدا .. فهناك ضحية .. ثم هرب أخوكم للشام ، وأرسل لنا محققا ساذجا وأحمق .. أراد أن يعمل هولمز علينا .. ومكث شهورا بيننا .. ويبدو أنه اقتنع ببعدنا عن الحادث الإجرامي .. رغم شدتنا في التعامل مع من يعمل معنا ويخدعنا .. ويبدو أن الشرطي الخاص اقنعه ببراءتنا من دم الرجل .

صاح نزيه : من قتله ؟.. هل انتحر ؟ أليس هناك قاتل ؟ .. رصاص أطلق علينا يا أبا سليم .. لماذا قتل ؟

قال شاكر بحدة : قتل نعم قتل ! هل يعني هذا أننا نحن قتلناه؟! اصمت والزم الصمت .. رغم سني ما زلت قويا ، وما زلت خالك.. نحن لم نقتله .. ولماذا نقتل؟! سألت نفسك .. وما الفائدة من قتلتك؟ .. لن نرث درهما منك .. لا نحن ، ولا مارينا .. الشك في أولادك أولى .. قد يستفيدون من موتك مع أنهم ليسوا في حاجة لمالك .. فسامي محامي كبير اليوم كما يعلم إبراهيم .. وميساء ناجحة ولها عمر في الإذاعة الوطنية .. وقد ارتكب سامي جرما كبيرا في نظرنا وطلق ابنة ابني ولم نقتله يا إبراهيم !

قال إبراهيم : العفو يا خالي ! المشكلة والقضية أن هناك قتيلا .. جريمة لم تكشف خيوطها .. ولم نعرف فاعلها .. هناك قاتل مجهول للعدالة .

قال الخال : ستصل الشرطة يوما ما إلى قاتله .. سمعنا عن جرائم في بلاد متقدمة كأمريكا

وكندا بعد عشرات السنين عرفوا القاتل .. نحن نريد الصلح ليس ؛ لأننا قتلة .. نريد الصلح لنخلص نحن وأنتم من غمز الصحف ورجال الصحافة والأحزاب .. ونحن نقترب من الموت .. فنتعاهد على طي صفحات الماضي والهرب والجريمة .. فرأيت هذا الاجتماع ، وأننا أهل وأقارب وأبناء بلدة واحدة يا إبراهيم الغالي.. فأنت فخر لنا جميعنا ، ليس لنزيه ويوسف فحسب .. فأنت ابن أختنا .. ونتعهد بالاعتذار علنا ؛ لينشر في الصحف أنه لا شيء بيننا ، وكل في بيته .. وبالنسبة لأهل المهندس القتيل سنقدم معونة ، وليست دية لوالديه وزوجته وابنه وابنته إلى أن يكشف المجرم .

قال إبراهيم : ومن يضمن هذا الصلح يا خال ؟ ولا يتعرض شقيقنا نزيه للقتل

قال شاكر : كل الموجودين هنا

حينئذ انطلقت رصاصة استقرت في صدر شاكر ، وكانت امرأة تقف بالباب

فصاح باكر : ويحك يا مارينا قتلت عمك!

قال العم : إذن أنت المجرمة التي سعت لقتل نزيه!

كان أمن الفندق قريبا من مارينا فطرحها أرضا قبل أن تطلق الرصاص ثانية

قال باكر : لعنة الله عليك أنت المجرمة إذن ! لماذا ؟!

ردت بحقد وغضب : دعوني .. لماذا ؟.. أنت تسألني لماذا ؟كان يجب أن يموت نزيه .. صبرت سنوات وسنوات .. كنت في أفكر بقتله قبل سفره وهربه .. وكأنه شعر بذلك .. وهرب للقرية ، وسافر خفية .. كان حقدي كبيرا عليه .. جعلني حقيرة لكل الأقارب والصديقات .. أنا تعلمت الرماية في نادي الرماية.. فلما عاد تجدد الحقد في هذا القلب الميت .. لقد جعلني هربه عاهرة تنام في حضن من هب ودب .. صرت في نظرهم امرأة ميتة لا تصلح أن تكون امرأة .. كل من نام معي رفض أن يكرر التجربة .. هو السبب جرح كبريائي بهجري ؛ كأنني امرأة عجوز .

لما انتهى التحقيق مع نزيه رجع للقرية في سيارته المصفحة ، وقد انتشر خبر حادث الفندق في الأخبار المرئية ومواقع الشبكات والإنترنت والصحف المسائية . استقبلت الأسرة نزيه ونزار الذي رافقهم للقرية ، وكان من ضمن المستقبلين الشيخ الكبير يوسف ، والشيخ عبد الله إمام المسجد المتقاعد ، وظل نزيلا في البلدة حيث تزوج امرأة منها ، واستقر فيها ؛ حيث أن زوجته توفيت قبل التقاعد بأيام .

هنأ الحاضرون نزيها على نجاته مرة أخرى ، ولما سئل عن إصابة خاله أجاب بأن الوضع حرج فقد استقرت الرصاصة الوحيدة في وسط الصدر ؛ ولكنها بعيدة عن القلب .

وأعلن أنه سيقيم وليمة لأهل القرية شكرا لله على نجاته من الغدر مرة ثانية ، ولانتهاء الغمة ، وزوال الخطر .

قال الشيخ عبد الله : الحمد لله على السلامة ، لم تكن مفاجأة كبيرة لك أنها طليقتك .. هل لها شريك في الجريمة الأولى ؟

قال مجيبا : تزعم أنها قامت بالفعل وحدها ، حضرت مرات متخفية للقرية ؛ حيث راقبتني ، وعرفت ترتيب حضوري لصلاة الفجر ، وفعلت فعلتها الجنونية ويبدو أن الشرطة لم يصدقوا كلامها ، ويعتقدون أن معها رجل ، لأن من عادتي الانصراف معك ومع أبي فور انتهاء الأذكار دبر الصلاة ونفترق قرب بيت وعمارة الوالد .. فكيف عرفت أنني سأقف أمام المسجد ؟! وذكرت أنها كانت تحضر مرتين للمنطقة عند الصباح ؛ لعلها تصدفني وحيدا خارجا من المسجد ..وجاءت الفرصة بأسرع مما توقعت .. وعندما أطلقت الرصاص تحرك الشاب فأصيب وأسرعت بالفرار ، وعادت لبيتها ؛كأن لم تفعل شيئا ، والأولاد لاحظوا في الشهر الأخير قبل القتل خروجها المتكرر ليلا ، فظنوا أنها تذهب إلى عشاقها للسهر والسكر إنما كانت تذهب إلى أحد الفنادق وقبل الفجر تأتي جمالة.

قال يوسف : هذه مجرمة كبيرة!

قال الشيخ المتقاعد : فكر شيطاني ! لعلها تقرأ أو تحضر أفلام ومسلسلات الشرطة فخططت ونفذت .

قضى القوم حتى الفجر يرحبون بالجيران والضيوف ، كلهم أقبلوا لتهنئة نزيه على نجاته ، والقبض على قاتلة المهندس خالد ، ولما ارتفع الآذان الكثير منهم انتقل للصلاة في مساجد البلدة.

أولم السيد نزيه وليمة كبيرة لأهل البلدة ، ودعا إليها كل من رغب حتى أنه دعا إليها عمادا وسليما ونعيما زملاء الجامعة ، وعلى رأسهم ابن عمه رافع.

كان اللقاء ممتعا وحدثا لا ينسى في جمالة ، وكان نزيه يقول لنداء : لا تحزني يا أم محمد على إجرام أمك.. فهي لم تحاول قتلي فحسب ، فقد قتلت إخوتك الثلاثة من شدة غلها عليّ .. كنت أراها مجنونة عندما نتشاجر ونتنازع عند مرضها .. قضيت أياما فعلا عصيبة .. كانت تهددني بالسكين أكثر مرة .. كنت أهرب للقرية خشية أن تنفذ تهديدها .. كنت أنام في غرفة وحدي مغلقا الباب بالمفتاح .. لا أكل من طعامها اذا طهت .. عشت معها في رعب .. لا أحس بالراحة والأمن إلا في هذه القرية وأترك المدينة .. أنا قادر على ضربها وإيذائها ؛ لكن نفسي لا تطاوعني تعودنا على احترام النساء .. وأعلم سطوة والدها وخالي شاكر لو آذيتها .. فكان الهرب .. ولما عدت يا بنيتي حاولت قتلي كما تعلمين ؛ لكن لم يشأ الله ذلك وكررت ذلك أمام أهلها .. المهم أن أموت قبلها فآذت عمها ، لم أمت كما رغبت .. حقدها كحقد بعير .. فلا أحب أن تحزني كثيرا يا نداء !

كان سليم زميل نزيه في كلية التجارة قد حضر الوليمة التي دعاه إليها نزيه بصحبة ابنه خالد ـ وهو طبيب عيون في مستشفى خاص ـ والسيد سليم أكمل الدراسات العليا وحصل شهادة الدكتوراه ، وقد عمل أول أمره محاسبا في بنك ، وهو اليوم مدير عدة شركات ـ مجموعة من الشركات ـ واستمرت علاقته بنزيه ورافع ونعيم أشرف وعماد ونعيم محمد حتى اليوم وحتى ونزيه في الأرجنتين ، كانت بينهم مخاطبات ، تناول سليم الطعام وغادر عائدا للمدينة .

أما عماد فأصر الشيخ عبد الله على بقائه هو وزوجته في ضيافته ، ورتب لوليمة خاصة في بيته دعا إليها نزيه والشيخ يوسف والمهندس نزار وزوجاتهم. ولما تناول الضيوف الطعام ، غادر نزار وزوجته وأمه المنزل ، وكان عماد يستعد للعودة للمدينة سلام بعد تقديم شكره الجزيل لقريبه عبد الله محمود . ولما جلسوا يشربون الشاي قال عماد : كبرنا يا نزيه ! والله ألف حمد لله على السلامة .. لقد نجوت بفضل الله.

أجاب : صحيح .. أنا أعرف بغضها من ذاك الوقت .. وأبي يعرف ذلك .. لذلك فضلت الهجرة مرغما ؛ ولكنه قدري .

واختلط الكلام ، وتحدثوا في السياسة ـ الموضوع الذي يستهوي عبدالله وعماد ـ حتى قال نزيه : ما أخبار الحزب ؟ منذ ظهرت الحركات الجهادية وحبها للعنف خفت صوتكم.

فال عماد : قبل الحديث عن حزبنا يا أبا ناصر .. لي صديق صحفي يرغب بسماع سيرتك وسيرة مطلقتك ونشرها .. فكر بذلك .. أما حزبنا فما زال قائما ، ويصدر بياناته ؛ ربما صار عددنا قريبا من المليون على مستوى العالم .. وما زلنا نسعى للخلافة ، وليس على طريقة القاعدة وغيرها من الحركات الجهادية ، ولابد من ظهورها قريبا كما أخبر النبي ﷺ في أحاديث ثابتة كما يقول الألباني في بعض كتبه صح يا عبدالله !

قال الشيخ مجيبا ومتذكرا : هناك أخبار نبوية بذلك منها قول الرسول : قال يا ابن حوالة إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل والبلابل والأمور العظام والساعة يومئذ أقرب من الناس من يدي هذه من رأسك . ورد هذا الخبر في كتاب سنن الإمام أبي داود ، وهو كتاب يعمل به أهل السنة والجماعة

قال الشيخ يوسف : كتاب معروف ومعتمد عندنا .. وفيه يا شيخ عبد الله أكثر من خمسة آلاف حديث .

ـ صحيح يا أبا إبراهيم .. وفي كتاب الإمام المبجل أحمد بن حنبل حديث آخر يخبر النبي ﷺ الأمة عن الخلافة الراشدة في آخر الزمان قال: " تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم

يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضا فيكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبريا فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة. ثم سكت ".

قال عماد : ولن تنسوا حديث فتح رومية كما فتحت القسطنطينية .

قال نزيه متعجبا من البشارة : يا الهي الإسلام يحكم روما!

قال يوسف : ألم يحكم هذه البلاد ويستقر فيها ليس على الله شيء بعزيز؟

قال الشيخ: نعم ليس على الله شيء بعزيز .. يرونه بعيدا ونراه قريبا.

جمال أبو الحسن

انتهت الحكاية بحمد الله



امرأة نزيه

